مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studies

تكوين (٨)



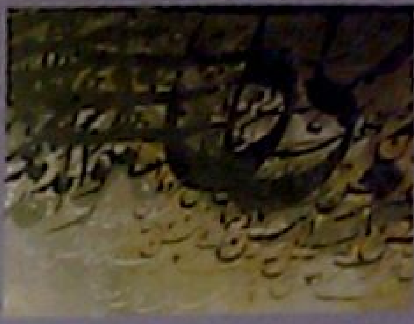
تكوين الملكة اللغوية

الطبعة الثالثة

د. البشير عصام المراكشي

n a m a - c e n t e r . c o m

لماذا هذا الكتاب؟



تكويـــن (٨)

لأن اللغة العربية هي المعبِّر الرئيسي والأساسي لخطاب الوحي المتوجه للمكلفين. ولأن جودة التلقي من خلالها تفهمًا ووعيًا للدلالات والمرادات؛ هي الخطوة الأولى لتجويد التطبيقات العملية لخطاب الشرع الحنيف.

ولأن اللغة العربية تأسست في بيئة العرب على نحو من السليقة والدربة، وتأصلت قواعدها من خلال استقراء لسان العرب التاريخي، وكذا خطاب الوحي الشرعي والاصطلاحي. ولأن الواقع المعاش بإشكالاته وانتكاساته أنتج فجوة وعجمة ذاتية للعرب مع لغتهم، وباتت حالة التبعية الحضارية للغرب نازعة لأخص خصوصيات الأمة وأكثر حصونها تحصينًا؛ وهي اللغة العربية.

يطرح مركز نماء، من خلال سلسلة «تكوين»، هذه الدراسة التي سعى من خلالها المؤلف لتأطير مساق عملي لاستعادة دور اللغة العربية في مجتمعاتنا وسيرورتنا الحضارية، ورصد في ثنايا البحث مواطن العطب التي أصابت محاضن تلقين وتعليم اللغة العربية، كما رسم مسارًا عمليًا علميًا لتنمية الملكات اللغوية الفردية، من خلال مستويات وفروع العلوم اللغوية النحوية والصرفية والبلاغية والأدبية، مع بيان أوجه التطبيق والتدريب.

تأتي هذه الدراسة التكوينية ضمن مشروعات المركز الساعية لوضع عدة أطروحات تكوينية تغطي رسالته وأهدافه المتوجهة للباحثين والمتخصصين والمثقفين، والهادفة لتنمية الملكات والمهارات الشرعية والفكرية.

المؤلف:

د. البشير عصام المراكشي

- كاتب وباحث من المغرب.
- حاصل على شهادة مهندس الدولة في الاتصالات.
- حاصل على شهادة الإجازة في العلوم الشرعية. موضوع التخرج: «حقيقة الإيمان من خلال تفسير فخر الدين الرازي».
- حاصل على شهادة الدراسات العليا في موضوع: «المنهج الإسلامي في دراسة روايات السيرة النبوية».
- حاصل على شهادة الدكتوراه في الفقه وأصوله من جامعة محمد الخامس بالرباط في موضوع: «المصالح والمفاسد في المذهب المالكي وتطبيقاتها المعاصرة».
- درس العلوم الشرعية على جماعة من العلماء بالمغرب.
- مشرف قسم العربية في «ملتقى أهل الحديث».

من إسهاماته البحثية:

- شرح منظومة الإيمان «قلائد العقيان بنظم مسائل الإيمان».
- «العلمنة من الداخل». مركز تفكر للبحوث والدراسات ٢٠١٤.
- يصدر له عن مركز نماء: «الدرس الحديثي في المغرب الأقصى في القرن ١٤ وأوائل القرن ١٥».

الثمن: ٦ دولارات
أو ما يعادلها

ISBN 9786144318126

مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studies

info@nama-center.com

تكويـــن (٨)

تكوين الملكة اللغوية

د. البشير عصام المراكشي

مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studies

تكوين الملكة اللغوية
البشير عصام المراكشي / كاتب من المغرب

الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠١٦م

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر مركز نماء».

بيروت – لبنان
هاتف: ٩٦١٧١٢٤٧٩٤٧

المملكة العربية السعودية – الرياض
هاتف: ٩٦٦٥٤٥٠٣٣٣٧٦
فاكس: ٩٦٦١٤٧٠٩١٨٩
ص.ب: ٢٣٠٨٢٥ الرياض ١١٣٢١

E-mail: info@nama-center.com

الفهرسة أثناء النشر – إعداد مركز نماء للبحوث والدراسات

عصام/ البشير
تكوين الملكة اللغوية، البشير عصام
٢٢٩ص، (تكوين؛ ٨)
٢١,٥×١٤,٥ سم
١. اللغة العربية. ٢. الملكة اللغوية. أ. العنوان. ب. السلسلة.

ISBN: 978-614-431-812-6

الفهرس

الموضوع	الصفحة
إهداء	٩
إضاءات	١١
المقدمة	١٣
مدخل تمهيدي	١٧
المبحث الأول: منزلة العربية من الدين	١٩
المبحث الثاني: الملكة اللغوية	٢٥
الباب الأول: عقبات في طريق تكوين الملكة اللغوية	٣٤
الفصل الأول: البُعد عن اللسان الأول	٣٥
المبحث الأول: أثر العلوم العقلية	٣٧
المبحث الثاني: أثر التطور التاريخي	٤٧
المبحث الثالث: التغريب اللغوي والأدبي في العصر الحديث	٥٧
الفصل الثاني: نقائص تدريس العربية	٦٢
المبحث الأول: التدريس التقليدي وتضخم المعلومات	٦٥

الموضوع	الصفحة

المبحث الثاني: التدريس الأكاديمي وتضخم المنهجية ٨٥

الباب الثاني: خطة عملية لتكوين الملكة اللغوية ٩٥

الفصل الأول: الزاد العلمي ١٠١

المبحث الأول: في النحو والصرف ١٠٣

المبحث الثاني: في البلاغة ١١٥

المبحث الثالث: في العروض ١٢٣

المبحث الرابع: في الإملاء ١٢٨

الفصل الثاني: الزاد اللغوي ١٣١

المبحث الأول: اللغة ١٣٥

المبحث الثاني: النصوص الدينية الأولى ١٤١

المبحث الثالث: الأدب ١٥٣

الفصل الثالث: الدّربة التطبيقية ١٦١

المبحث الأول: التعبير الشفوي ١٦٥

المبحث الثاني: التعبير الكتابي ١٧٣

المبحث الثالث: البحث والتحرير اللغوي ١٨٧

الفصل الرابع: التمثيل ببعض الملَكات اللغوية الفرعية ١٩٥

المبحث الأول: ملكة الفهم الاستنباطي المستند إلى اللغة ١٩٥

المبحث الثاني: ملكة تحديد السياق الزماني للنص اللغوي ٢٠١

المبحث الثالث: ملكة الربط بين المعنى والإعراب النحوي ٢٠٧

الموضوع	الصفحة
المبحث الرابع: ملكة تحليل المادة اللغوية باعتماد القواعد البلاغية	٢١٣
المبحث الخامس: ملكة التعبير اللغوي السليم عن المعاني الحادثة ..	٢١٧
الخاتمة	٢١٩
ملحق قائمة كتب للقراءة في اللغة والأدب	٢٢١

إهـــداء

إلىٰ من علّمني منذ أن كنتُ غضّ الإهاب: حبَّ العربية، والتتيّم بعلومها وآدابها: أبي ..

إلىٰ التي سهرتْ علىٰ راحتي وحسن تربيتي، وأعانتني بدعائها وأنا أنهلُ من فيض العربية النمير: أمي ..

إلىٰ التي شجعَتني علىٰ الكتابة، رغم المتاعب المضنية، والشواغل الممضّة: زوجتي الحبيبة ..

إلىٰ أولادي: أسماء وفاطمة الزهراء ومحمد، داعيا أن يكونوا من محبي العربية وحُماتها ..

إلىٰ أخواتي الفاضلات اللواتي وفّرن لي العيشة العائلية الهنيئة، وأزواجهن الأصدقاء الفضلاء ..

إلىٰ أحباب العربية ..

إضـــاءات

«والعربية إنما احتاج المسلمون إليها لأجل خطاب الرسول بها، فإذا أعرض عن الأصل كان أهل العربية بمنزلة شعراء الجاهلية أصحاب المعلقات السبع ونحوهم من حطب النار».

شيخ الإسلام ابن تيمية (مجموع الفتاوى ١٣/٢٠٧)

«وذلك أن الحذق في العلم والتفنن فيه والاستيلاء عليه، إنما هو بحصول ملكة في الإحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله».

ابن خلدون (المقدمة ٢/١٦٦)

«فن الفصاحة والبلاغة غير فن النحو والإعراب».

ابن الأثير (المثل السائر ٢/٨٧)

«.. قد بقي من قواعد فهم اللغة ما لا يعرف إلا بالممارسة التامة وتربية الذوق الصادق، بل إن القواعد المبسوطة المحرّرة لا يستطاع تطبيق أكثرها بدون ممارسة وحسن ذوق. وليس هذا خاصا بعلم العربية، بل الأمر كذلك في بقية العلوم ..».

عبد الرحمن بن يحيى المعلمي (رفع الاشتباه ١/٣١٥)

مُقَدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه.

أما بعد:

فإنه لا يختلف اثنان حول أهمية اللغة العربية في حفظ الهوية الحضارية للأمة، وفي ربط حاضرها بالمَعين الأصلي لدين الإسلام. كما لا يختلف عالمان بأصول الاستنباط الأصولي، أن أساس هذا الاستنباط وركنَه الركين، هو المعرفة العميقة باللسان العربي، سواء أكان ذلك من جهة القواعد والمعلومات، أو من جهة الذوق والملَكات.

ولا يخفى على المتأمّل الفطن، ما تعرفه الحالة اللغوية والعلمية للأمة، من تشتت لغوي مدمر، وبُعد خطير عن اللسان العربي الأول، وعجز مرَضيّ عند كثير ممن يُقتدى بهم، ويرتجى -بعد الله- خيرُهم، من خاصة أهل الإسلام وخيارِ نخبتهم، عن التعبير العربي الفصيح عن المعاني المختلفة، قديمها ومستجدّها.

أما مَن هم دونهم من عامة المسلمين، فظنّ «شرًّا» ولا تسأل عن الخبر!

كما لا يخفىٰ ما يعانيه التعليم -رسميا كان أو غيره- من تركيز علىٰ حشد المعلومات، وتقرير القواعد، في انقطاع تام عن تكوين الذوق اللغوي البعيدِ عن المؤثرات الخارجية، والقريب -ما أمكن- من الذوق العربي الأصيل.

والذين يُنتجهم هذا التعليمُ المختلّ، يجدون أنفسهم في حاجة ملحّة إلىٰ تكوين ملَكتهم اللغوية، عبر خطوات عملية واضحة المعالم، تقودهم من هوامش اللغة إلىٰ مركزها، ومن القواعد الجافة إلىٰ رونق اللفظ وسلاسة التعبير.

ومن هنا كان انطلاق فكرة هذا الكتاب.

وقد جعلت من وُكدي حين نهدتُ إلىٰ هذا التأليف، أن أعرض الإشكال أولا، ليشاركني القارئ الكريم في تصور معالمه، ومعرفة أسبابه؛ ثم أن أعرِض ما أراه حلا لهذا الإشكال، وهو اقتراح خطة عملية لتحصيل الذوق العربي الخالص من الشوائب الطارئة بعد عصر السلف الأول، للوصول إلىٰ فهم صحيح لنصوص الوحي، والتأهل للإبداع الفكري بلسان عربي فصيح.

وهكذا جعلتُ الكتاب في بابين اثنين، أولهما لعرض الإشكال والثاني لاقتراح الحل.

ووطّأت لهما بمدخل تمهيدي نبّهت فيه أولا علىٰ الارتباط

الراسخ بين العربية ودين الإسلام، وعرّفت فيه ثانيا الملكة عموما، والملكة اللغوية خصوصا.

وأما الباب الأول المخصّص لبيان العقبات التي تمنع تحصيل الملكة اللغوية، فقسمته إلىٰ فصلين. أولهما: لبحث الأسباب الداخلية والخارجية للبُعد عن اللسان العربي الأول، والثاني: لبيان عيوب تدريس اللغة العربية اليوم.

وأما الباب الثاني -وهو المقصود بالبحث- فاقترحت فيه خطة عملية لتكوين الملكة اللغوية، وجعلته في أربعة فصول:

الفصل الأول: في بيان الزاد العلمي الواجب تحصيله، في النحو والصرف والبلاغة والعروض والإملاء.

والفصل الثاني: في تفصيل الزاد اللغوي، الذي يجب اقتباسه من معاجم اللغة، ونصوص الشريعة الأولىٰ، وكتب الأدب العربي.

والفصل الثالث: في أساليب التدريب العملي في ثلاثة اتجاهات: التعبير الشفوي، والتعبير الكتابي، والبحث والتحرير اللغوي.

والفصل الرابع: في التمثيل بخمس ملَكات لغوية فرعية، يُستدل بها علىٰ ما سواها.

وأسأل الله ﷻ أن ينفع بهذا الكتاب، ويجعله لي ذخرا يوم العرض والحساب.

والحمد لله رب العالمين.

مدخل تمهيدي

المقصود من هذا المدخل التوطئة للكتاب، ببحث مسألتين لا بد أن يستحضرهما القارئ، علىٰ مرّ مصاحبته لفصول الكتاب:

أولاهما: مرتبة العربية من الدين وعلومه.

والثانية: معنىٰ الملكة العلمية عموما، واللغوية خصوصا.

ولهاتين المسألتين خصصتُ مبحثين.

والله الموفق.

المبحث الأول

منزلة العربية من الدين

الإسلام والعربية مرتبطان لا ينفكان، إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها!

وما رأيت يقينا لا شك فيه، أشبه بشك لا يقين فيه، من هذا المعنىٰ!

وذلك أنه لا يرتاب مطلع علىٰ شريعة الإسلام، في أهمية العربية وكونها أساسا لا تقوم معرفة الدين ومرادِ الله من المكلفين، إلا عليه. ولكن الناظر في حال أهل الإسلام اليوم -ولا أستثني أهل العلم والدعوة إلا أفرادا قلائل- يتعجب ويشتد عجبه من إهمالهم اللغة العربية، وغفلتهم عن علومها وآدابها، إلا ما يكون من خُطب بين الفينة والأخرىٰ في أهميتها ووجوب تعلّمها. أما القيام بأعباء ذلك عمليا، ومكابدة علوم العربية، والاشتغال بآدابها، فمرابعُ مهجورة لا تكاد تجذب إليها أحدا، غير أفذاذ من العلماء والطلبة!

والعربية أساس الدين، وركنه الركين[1]، علم ذلك من علمه وجهله من جهله!

وقد شاء الله تعالىٰ أن يختار هذه اللغة، فيشرّفها بأن تكون لغة كتابه العزيز، فقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، في آيات أخرىٰ كثيرة.

وقد عصمنا الله تعالىٰ -معاشر المسلمين- من أن نتابع الذي يزعمون التساوي بين اللغات، ولا يرون للعربية عليها فضلا. بل نحن نعتقد المفاضلة واجبا شرعيا، إذ كيف يستوي لسان هو لسان كتاب الخالق جل شأنه، بغيره من ألسنة الناس[2]؟!

ولو لم يكن للعربية بين اللغات إلا هذه المنقبة السامية، والفضيلة الخالدة، لكفاها؛ فتلك العزة القعساء التي لا ترام!

فكيف وقد زادت شرفا بكون أفضل الخلق ﷺ عربي اللسان، وبكون سادات الأمة من الصحابة والتابعين والأئمة عربا أقحاحا بالنسب أو بالثقافة.

وزد علىٰ ذلك كله هذا التراث الإسلامي الراقي في علوم

---

(١) من أراد التفصيل فليرجع إلىٰ كتاب: «الصعقة الغضبية في الرد علىٰ منكري العربية» لنجم الدين الطوفي الحنبلي (من ص٢٣٣ إلىٰ ص٢٧٩)؛ وكتاب: «روضة الإعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام» لابن الأزرق الغرناطي (من ص٨٩ إلىٰ ص٣٠٦).

(٢) إن أريد التساوي في مناهج البحث اللغوي، وأصول التطور، والمباحث الصوتية، ونحو ذلك، فهو ممكن وارد. أما المساواة في الفضل والمنزلة، فلا يكون ذلك أبدا!

الشريعة -وهي أفضل العلوم وأحراها بالعناية والحرص-، وكلّه مسطور بلسان عربي فصيح.

ولأجل هذا كله، لم يكن في مقدور المسلم أن ينتفع بالوحي إن لم يكن لديه من العربية الزاد الكافي.

وأول ذلك القراءة السليمة!

فإن قراءة القرآن قراءةً سالمة من اللحن الخفي والجلي، موافقةً لما قرأ به رسول الله ﷺ، لا تكون إلا بعد معرفة اللغة العربية، وإتقان قواعدها. وقد رأيت بعض مَن ارتمىٰ إلىٰ تعلم التجويد والقراءات، قبل تعلم قواعد النحو والصرف، يكابد من ذلك لأيًا مُمضّا، ويجد في فهم كلام أهل القراءات عنَتا بالغا!

وكذلك القراءة السليمة للأحاديث النبوية، والسيرة الشريفة، والآثار عن أئمة السلف، وكتب التراث الفقهي والعقدي والأصولي والتاريخي.

وبعد القراءة يأتي الفهم. فالعربية مفتاح فهم الوحيين والاستنباط منهما.

وما أجَلتُ طرفي في ضلالات الناس، وكثرة اختلافهم، وشدة انحرافهم عن الطريق القويم؛ إلا تيقنت أن مشكلتنا اليوم مشكلة فهم! والذي لا يعرف اللغة، ولا يمارسها، ولا يسمعها، ولا يقرأ بها، كيف نطالبه بفهم ما تحمله تراكيبها من المعاني - دقيقةً كانت أو ميسورة؟!

كيف نطالب الناس بتدبر القرآن، وفهم مراد الله، والتأثر بزواجره ومواعظه؛ وأذواقُهم اللغوية منحطة بكثرة ما يسمعون من الكلام العامي المبتذل؟

كيف نحصّن الناس من دعاة الضلالة الذي يخرجون كل يوم بفهم مبتدع جديد، لآية قرآنية أو حديث نبوي؛ وهم لا يميزون بين فهم وآخر، وتستوي عندهم لجهلهم بالعربية جميعُ الاستنباطات؟!

ولذلك فإن من من تعلم العربية، فقد امتلك نصف علوم الشريعة، فليسلك الطريق إلىٰ تحصيل النصف الآخر، وهو هانئ البال مطمئن النفس!

ولأجل ذلك، كثر في كلام أئمة الشرع الحض علىٰ تعلم العربية، واجتناب اللحن والتحذير منه، والتنبيه علىٰ أن دراسة علوم اللغة لا يقل أهمية عن دراسة أحكام الحلال والحرام.

قال الإمام نجم الدين الطوفي:

«ثم إنا ابتلينا بجهال متعلمي زماننا، وعجزة متمزهديهم، إذا ذكر الأدب بحضرتهم ينفض أحدهم كمّه، ويكلح وجهه، ويقول: معرفة مسألة من الحلال والحرام أحبّ إلي من كتاب سيبويه، ويتغالىٰ في التمزهد، ويبالغ في التقشف، عجزا منه.. ولو نظر ببصيرته التي لم ينوّرها الله تعالىٰ، وتأيّد في أمره لما قال ذلك، فإن المسألة التي يشير إليها من الحلال والحرام، إنما نشأت عن البحث عن معاني الكتاب والسنة، وتحقيق ألفاظهما، وتنقيح المراد

بهما، وطريق ذلك العربية، وغيرها من المواد»[1].

وللعربية دور كبير في ثلاثة مجالات شرعية، هي أركان ما يطالب به المكلف.

أولها: العقيدة. وقد نصّ العلماء علىٰ أن الجهل بالعربية يؤدي إلىٰ التخليط في العقائد، وما أتي المتأخرون في هذا الباب إلا من جهة بعدهم عن اللسان العربي الأول.

وقد لخص ذلك أبو عمرو بن العلاء حين ناظر عمرو بن عبيد المعتزلي في الوعد والوعيد، فكان مما قاله له: «من العُجمة أُتيتَ أبا عثمان!..»[2].

والثاني: الفقه. وقد بحث الأصوليون شروطَ الاجتهاد الفقهي، فاتفقت كلمتهم علىٰ أن العلم بالعربية من أعظم ما علىٰ مريد الاجتهاد أن يتقنه.

قال الشاطبي:

«.. الشريعة عربية، وإذا كانت عربية فلا يفهمها حق الفهم إلا من فهم اللغة العربية حق الفهم، لأنهما سيان في النمط، ما عدا وجوه الإعجاز. فإذا فرضنا مبتدئا في فهم العربية فهو مبتدئ في فهم الشريعة، أو متوسطا فهو متوسط في فهم الشريعة، والمتوسط لم يبلغ درجة النهاية، فإن انتهىٰ إلىٰ درجة الغاية في

---

(١) الصعقة الغضبية: ٢٦٧.

(٢) مجالس العلماء للزجاجي: ١/ ٦٢.

العربية كان كذلك في الشريعة، فكان فهمه فيها حجة كما كان فهم الصحابة وغيرهم من الفصحاء الذين فهموا القرآن حجة. فمن لم يبلغ شأوهم فقد نقصه من فهم الشريعة بمقدار التقصير عنهم..»[1].

والثالث: السلوك والتربية. فلا يتأثر بمواعظ القرآن، وينزجر بقوارعه، من لا يحسن فهم مفرداتها وتراكيبها.

وقارن حال السلف عند سماع القرآن أو تلاوته بحال أهل العصر، تفهمْ أهمية العربية في التأثر الروحي، والخشوع القلبي لكلام الله تعالىٰ.

وعلىٰ الجملة، فإن الإسلام مرتبط بالعربية أشد ما يكون الارتباط. وأهل الغيرة الدينية هم المسؤولون عن الذب عن العربية في وجه خصومها، لأنهم لا يرون في ذلك إلا ذبا عن الإسلام، ودفاعا عن حرمات الدين؛ كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

«والعربية إنما احتاج المسلمون إليها لأجل خطاب الرسول بها، فإذا أعرض عن الأصل كان أهل العربية بمنزلة شعراء الجاهلية أصحاب المعلقات السبع ونحوهم من حطب النار»[2].

والذي حفظ العربية من الاندثار، والعرب من الذوبان في غيرهم، إنما هو الإسلام. كان هذا صحيحا في سابق الأيام، وهو الآن صحيح، وسيبقىٰ كذلك إلىٰ ما شاء الله أن يبقىٰ.

---

(١) الموافقات: ٥/ ٥٣.

(٢) مجموع الفتاوىٰ ١٣/ ٢٠٧.

المبحث الثاني

الملَكة اللغوية

● **تعريف الملكة في اللغة:**

لا تذكر معاجم اللغة لفظ «الملكة» بمعناها الذي نقصده هنا، وإنما يوجد فيها: «فلان: سيّئ المَلَكة» أي: يسيء صحبة مماليكه، وحَسن المَلَكة بعكسه[1].

وأصل اللفظ وهو جذره المكون من الميم واللام والكاف، يدل -كما يقرره ابن فارس- على قوة في الشيء وصحة، يقال: أملَك عجِينَه: قوّىٰ عجنه وشدَّه. وملّكت الشيء: قوّيتُه. ثم قيل ملَك الإنسان الشيء يملكه ملكا. والاسم المِلك؛ لأن يدَه فيه قويّة صحيحة.

وإذا صحّ هذا الأصل الجامع لشتات هذه المادة اللغوية، فإن اشتقاق المعنىٰ الاصطلاحي منه، يصبح ظاهرا لا خفاء فيه.

---

(١) لسان العرب: مادة (م ل ك).

- **تعريف الملكة اصطلاحا:**

يعرّفها الجرجاني بأنها: «صفة راسخة في النفس»[1]. ثم يشرح ذلك بقوله:

«وتحقيقه أنه تحصل للنفس هيئة بسبب فعل من الأفعال ويقال لتلك الهيئة كيفية نفسانية، وتسمىٰ حالة ما دامت سريعة الزوال، فإذا تكررت ومارستها النفس حتىٰ رسخت تلك الكيفية فيها وصارت بطيئة الزوال فتصير ملكة»[2].

وبعبارة أخرىٰ، فالملكة لا تحصل بالفعل الواحد، وإنما تحصل بعد تكرار الفعل مرات عديدة. فما يحصل في النفس بسبب فعل ما، يسمىٰ كيفية نفسانية. فإذا تكرر الفعل، لكن ما زالت الهيئة الحاصلة سريعة الزوال لعدم رسوخها، سميت هذه الهيئة حالة. ثم إذا وقع التكرار الكثير، حتىٰ رسخت الهيئة في النفس، وصارت بطيئة الزوال، سميت حينئذ: ملكة.

والملكة شيء زائد علىٰ الفهم، كما يقرر ذلك ابن خلدون بقوله:

«وهذه الملكة هي غير الفهم والوعي. لأنا نجد فهم المسألة الواحدة من الفن الواحد ووعيها، مشتركا بين من شدا في ذلك

---

(١) وهذا مناسب للأصل اللغوي الذي سبق نقله عن ابن فارس، فإن الرسوخ في النفس ملائم لمعنىٰ القوّة.

(٢) التعريفات للجرجاني (ت. المنشاوي): ١٩٣.

الفن، وبين من هو مبتدئ فيه، وبين العامي الذي لم يحصل علما، وبين العالم النحرير. والملكة إنما هي للعالم أو الشادي في الفنون دون من سواهما، فدل علىٰ أن هذه الملكة غير الفهم والوعي»[1].

ومما سبق تظهر لنا خصائص لا بد من التركيز عليها، لفهم معنىٰ الملكة:

أولا: الملكة العلمية صفة في النفس، وليست مجموعة من المعلومات، أو منظومة من القواعد. وعلىٰ هذا فالذي يحفظ الألفاظ الفقهية ومعانيها، ويعرف ترتيب الأبواب الفقهية، ويستحضر أحكام الفقهاء في المسائل المختلفة، لا يكون بمجرد ذلك صاحب ملكة فقهية، حتىٰ يصبح الفقه له سجية وصفة.

ثانيا: الملكة تأتي بالاكتساب والعمل علىٰ الصحيح. ولا ينفي ذلك أن أصل القدرة علىٰ تحصيلها، والرغبة في ذلك، موهبة من الله ﷻ.

وبعبارة أخرىٰ: أصل الملكة هبة من الله، ولكن لا تنفع صاحبها، ولا يظهر أثرها للعيان، إلا بعد سعي وجهد وتحصيل. ولا بد مع ذلك من توفيق الله تعالىٰ، وإلا كان العمل ضائعا، والجهد هباء منثورا.

ثالثا: لا تحصل الملكة لصاحبها إلا بعد تكرار كثير للفعل،

---

(١) مقدمة ابن خلدون (ت. عبد الله الدويش): ٢/ ١٦٦.

وأما الفعل القليل دون تكرار فقد تحصل به صفة في النفس، لكن لا رسوخ لها، بل تزول سريعا.

ولا يكون العالم عالما حقا، حتىٰ تحصل له في مجال اختصاصه العلمي ملكةٌ، بكثرة اطلاعه علىٰ القواعد، وممارسته للمسائل، ووقوفه علىٰ الفروق والنظائر، وربطه الفروع بأصولها. وأما القراءة السطحية، والاكتفاء بحفظ المسائل بأدلتها أو مجردة عنها، فإنه لا يحقق الحذق بالفن، ولا يؤسس الملكة العلمية التي هي معيار الانتساب إلىٰ ذلك العلم.

يقول ابن خلدون:

«وذلك أن الحذق في العلم والتفنن فيه والاستيلاء عليه، إنما هو بحصول ملكة في الإحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف علىٰ مسائله واستنباط فروعه من أصوله. وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق في ذلك المتناول حاصلا»[1].

رابعا: تبدأ الملكة صغيرة ضعيفة ثم يشتد عودها وتنمو وترسخ في النفس. وبداية تأسيس الملكة من المبادئ الأولىٰ في العلم التي يتلقاها الطالب، ثم إذا توسع بعد ذلك في الأصول والقواعد قويت ملكته بمقدار ما حصّل من ذلك. ثم إذا زاد تحصيله العلمي، وكثرت قراءاته في الفن، حتىٰ لم يعد يعسر عليه فيه شيء ذو بال، تهيأت له ملكة راسخة في هذا العلم.

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ٢/١٦٦.

ويشرح ابن خلدون هذا المعنىٰ بقوله:

«اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيدًا إذا كان علىٰ التدريج شيئا فشيئا وقليلا قليلا. يلقىٰ عليه أولا مسائل من كل باب من الفن، هي أصول ذلك الباب، ويقرب له في شرحها علىٰ سبيل الإجمال، ويراعىٰ في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتىٰ ينتهي إلىٰ آخر الفن، وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم إلا أنها جزئية وضعيفة، وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله. ثم يرجع به إلىٰ الفن ثانية، فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلىٰ أعلىٰ منها، ويستوفي الشرح والبيان ويخرج عن الإجمال، ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه فتجود ملكته. ثم يرجع به وقد شدا، فلا يترك عويصا ولا مبهما ولا مغلقا إلا وضحه، وفتح له مقفله، فيخلص من الفن وقد استولىٰ علىٰ ملكته»[1].

● الملكة اللغوية:

بعد تعريف الملكة عموما وتمييز بعض خصائصها، فلنا أن نسأل: ما الملكة اللغوية التي أقصد في بحثي هذا إلىٰ بيان طرق تحصيلها؟ وما فائدة السعي في امتلاكها؟

الملكةُ اللغوية: «سجية راسخة في النفس، تمكّن صاحبها من قوة الفهم لدقائق الكلام العربي الفصيح، وحسن التعبير عن

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ٢/ ٣٤٧.

المعاني المختلفة بلسان عربي سالم من أوضار العجمة ومفاسد اللحن، مع القدرة علىٰ الجمع والتفريق والتصحيح والإعلال ونحو ذلك».

فهذه أركان ثلاثة:

أولها: راجع إلىٰ الفهم. لكنني احترزت بقولي: «قوة الفهم» من الفهم السطحي الذي يلامس المعاني الظاهرة، ولا يغوص وراء درر المعنىٰ الكامنة.

واحترزت بقولي: «الدقائق الكلام» من الكلام المبتذل الذي يكاد يفهمه كل أحد. ولا شك أن من المقصود بالفهم أصالة: أسرار القرآن الكريم، ولطائف الحديث النبوي الشريف.

واحترزت بقولي: «الفصيح» من الكلام الذي لا يستجمع شروط الفصاحة، فإنه لا يُحفل به في هذا المقام.

والثاني: راجع إلىٰ التعبير الشفوي والكتابي. واحترزت بقولي: «حسن التعبير» من التعبير الركيك الذي ينبو عن السمع، ويقبح في العين.

واحترزت بقولي: «المعاني المختلفة» من انحصار القدرة علىٰ التعبير في أصناف معينة من الأغراض والمعاني، دون غيرها.

واحترزت بذكر السلامة من العجمة واللحن، من التعبير الحسن بمعيار كثير من أدباء عصرنا، مع كونه أعجمي التركيب، أو مخالفا لقواعد النحو والصرف.

والثالث: راجع إلىٰ الصناعة اللغوية، التي تدرَك بطول الممارسة لعلوم اللغة، حتىٰ يصير الممارِس قادرا علىٰ الجمع بين المتماثلات، والتفريق بين المختلفات، والحكم بالصحة أو الفساد علىٰ التراكيب والمفردات، وما أشبه ذلك مما سيأتي بعضه في مبحث التحرير اللغوي، وفي التمثيل لبعض الملكات اللغوية الفرعية.

ومن هذا التقرير، يعلم أن الملكة اللغوية لا تُبنىٰ بمعرفة العلوم اللغوية وحدها، ولا بممارسة اللغة وحدها.

وقد اطلعت علىٰ كلام لابن خلدون في مقدمته الشهيرة، في فصل جعل عنوانه: «في أن ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية، ومستغنية عنها في التعليم»[1].

وقد فصل رحمه الله في هذا المعنىٰ، وأبدىٰ فيه وأعاد؛ فكان مما قاله:

«.. إن صناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة. فهو علم بكيفية، لا نفس كيفية. فليست نفس الملكة، إنما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علما، ولا يُحكمها عملا (..) وهكذا العلم بقوانين الإعراب مع هذه الملكة في نفسها، فإن العلم بقوانين الإعراب إنما هو علم بكيفية العمل وليس هو نفس العمل».

ثم ذكر بعض أسباب الانفصام بين تدريس علوم اللغة،

(١) مقدمة ابن خلدون: ٢/ ٣٨٥.

وتحصيل الملكة اللغوية. وسنذكر شيئا من ذلك بتفصيل أكبر في الباب المخصص للعقبات التي تعترض سبيل تكوين ملكة اللغة، بما يغني عن تقديمه هنا.

ولكن لا يفوتني أن أنبه علىٰ أن في كلامه ﷺ بعض المبالغة في الحط من دَور علوم العربية في تحصيل الملكة اللغوية، حتىٰ صرّح بأنّ الملكة مستغنية في الجملة عن صناعة العربية.

والحق أن هذا كان ممكنا في عصور العربية الأولىٰ، لكنه اليوم غير ممكن، بل هو ممتنع منذ قرون طويلة. فمن أراد ممارسة العربية الفصحىٰ احتاج -ولا بد- إلىٰ تعلم القواعد والضوابط، وإلا فأين يجد في زماننا المحضن اللغوي الصالح الذي يغنيه عنها؟

وليس هذا خاصا باللغة!

فملكة الاستنباط الفقهي، وملكة إعلال الأحاديث، كانتا متاحتين في العصور الأولىٰ بالممارسة وإنعام النظر، وذلك قبل أن تقعّد القواعد وتوضع الأصول الضابطة. وليس يمكن لأحد اليوم أن يزعم قدرته علىٰ امتلاكهما، بالنظر المجرد في نصوص الوحيين، دون تعلم علمي الفقه والحديث، بل التبحر فيهما!

ولذلك فأنا أقرر -بطمأنينة- أن الملكة اللغوية تبنىٰ علىٰ أساسين يكمّل أحدهما الآخر: العلم والممارسة.

وسيأتي -إن شاء الله- مزيد بيان لهذا الأمر فيما يأتي من مباحث هذا الكتاب.

الباب الأول

عقبات في طريق تكوين الملكة اللغوية

إذا ثبت لديك أن تكوين الملكة اللغوية من أعلىٰ ما ينبغي أن يشتغل به المسلم، لما ينبني عليه من تصحيح العلاقة بين المسلم وينابيع الشريعة الأصلية، فإن من المناسب أن نبين بعض العقبات التي منعت هذا التكوين قديما، أو لا تزال تمنعه اليوم.

والذي يبدو لي أن هذه العقبات تدور علىٰ محورين اثنين:

المحور الأول: عقبات مرتبطة باللغة ذاتها، من جهة ما لحقها من تطورات أو دخل إليها من مؤثرات، أبعدتها عن اللسان الأول الذي نزل به الوحي.

والمحور الثاني: عقبات مرتبطة بوسائل تحصيل الملكة، في شقيها التقليدي والحديث.

فهما إذن فصلان اثنان، هذا أوان الشروع فيهما.

الفصل الأول

البُعد عن اللسان الأول

أُطلب من أي مثقف عربي اليوم أن يقرأ نصا لغويا تراثيا، وتأمل الصعوبة التي يجدها في قراءة ألفاظه فضلا عن فهم معانيه!

بل اطلب ذلك من طالب علم شرعي، تجدْ حاله أفضل من الأول، لكنه لا يسلم مع ذلك من التعثر والاضطراب.

والسبب في هذا: أن اللغة السائدة اليوم في التعليم والإعلام والأدب، وفي كل مكان، لغة بعيدة البعدَ كلَّه عن اللغة العربية الأصيلة، التي نزل بها الوحي، وتكلم بها العرب الأقحاح قبل الإسلام وفي قرونه الأولىٰ.

بل إن اللغة المتداولة في كتب العلم الشرعي أيضا -مع ما دخلها من تباعد عن اللسان الأول بعد قرون من التطور الداخلي والتأثير الخارجي- يراد لها اليوم مزيد من البعد عن هذا اللسان، تحت ذرائع مختلفة، لكنها تصب في مسيل واحد:

بعد علىٰ بعد علىٰ بعد..

وبعد التأمل فإن هذا الابتعاد عن اللسان الأول يمكن بيانه في ثلاثة مباحث:

- أثر العلوم العقلية،
- وأثر التطور التاريخي والمؤثرات الخارجية،
- والتغريب اللغوي والأدبي في العصر الحديث.

المبحث الأول

أثر العلوم العقلية

انفتحت الأمة الإسلامية في مرحلة من مراحل تاريخها علىٰ الحضارات الأخرىٰ، خاصة منها الثقافة اليونانية، التي تسربت منها إلىٰ الأمة أصنافٌ من العلوم العقلية، خاصة الفلسفة والمنطق.

وازدهر هذان العلمان في أرجاء العالم الإسلامي، وتتابع المؤلفون علىٰ شرح كلام فلاسفة الإغريق -خاصة أرسطو- أو علىٰ نقده وتبيين مكامن الخلل فيه.

ونشأ علم الكلام من روافد مختلفة، من أهمها المنطق والفلسفة؛ وانتشر في الحقل المعرفي للأمة انتشار النار في الهشيم.

كما أن التأثيرات الغنوصية الهندية والإشراقية اليونانية امتزجت مع مبادئ السلوك الإسلامية الأصلية، وأنتجت التصوف الفلسفي.

وفي هذين الاتجاهين الفكريين: مجموعة من المعاني المستحدثة، وطرائق في التعبير عنها مخصوصة، وألفاظ

اصطلاحية معينة استُجلبت بهيئتها الأصلية من اللغات الأخرىٰ، أو اشتقت من أصول عربية لتعبّر عن تلك المعاني الحادثة.

ولذلك فمن الوهم أن يعدّ هذا التأثير اليوناني والهندي خاصا بالعقائد الإسلامية، بل الصحيح أنه أثر شمولي امتد لجميع مفاصل المعرفة في الأمة الإسلامية[1]. ويكفي أن نستحضر أن العالِم لا يكون عالما في العصور السابقة إلا إن كان له اطلاع علىٰ علوم مختلفة منها علم الكلام والتصوف. فلا بد إذن أن يكون متأثرا بهما -ولو قليلا- في أسلوب كتابته، وإن كان الموضوع خارجا عن مجالهما.

واعتبر هذا المعنىٰ، بحال المفكر المتشبع في عصرنا بالكتابات الفكرية والفلسفية، إذا خطر له أن يكتب قطعة أدبية فإنك واجد في أسلوبه -ولا بد- نثارا لا تخطئه عين الناقد، من الألفاظ والتراكيب المتداولة في كتب الفكر والفلسفة.

وقد كان تأثير العلوم العقلية في اللغة العربية من وجهين:

الأول: علىٰ التعبير العربي ذاته،

والثاني: علىٰ الدرس اللغوي.

❁ ❁ ❁

تغيرت طبيعة التعبير اللغوي بتأثير من العلوم العقلية المتغلغلة

---

(١) لكنني لست أذهب مذهب من غلا في تعظيم الأثر اليوناني علىٰ الأدب العربي، كالمستشرقين ومن تبعهم في ذلك.

في الأمة. وقد ظهر هذا الأثر في مجالين كبيرين: الأدب والعلوم الشرعية.

أما في الأدب، فمجال القول في ذلك واسع، وهو يحتاج إلىٰ إطالة في شرح التطور التاريخي للأدب العربي، ورصد أوجه التأثر بالعلوم الواردة من الأمم الأخرىٰ. ويكفي استحضار العلاقة الوطيدة بين الاعتزال والأدب، فقد كان كثير من الأدباء من متكلمي المعتزلة أيضا!

وليست الإطالة في هذا من غرض الكتاب، إذ المقصود عندي تأكيد ما وقع علىٰ اللسان العربي من تغير، بتأثير هذه العلوم. فيكفيني في ذلك نموذجان مشتهران عند أهل الأدب.

أولهما: الحكم المنقولة عن فلاسفة اليونان وأطبائه في كتب الأدب العربي المؤلفة في العصر العباسي. وأنت إذا طالعت مؤلفات الجاحظ، أو كتاب «العقد الفريد» لابن عبد ربه، أو «عيون الأخبار» لابن قتيبة، أو «البصائر والذخائر» و«الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيان التوحيدي، وجدت نقولا كثيرة عن أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطوطاليس وأبقراط.

وهذه الحكم وإن كانت معرّبة، لا تخلو من احتفاظ ببعض أساليب التعبير الأصلية.

والثاني: في مجال النقد الأدبي، وهو ما اشتهر من تأثر قدامة بن جعفر في كتابه «نقد الشعر» بعلوم اليونان.

فمن ذلك: تكلفه وضع تعريف للشعر، علىٰ طريقة الحدود المنطقية الأرسطية، المكونة من جنس وفصول؛ فيعرفه بأنه: «كلام موزون مقفىٰ يدل علىٰ معنىٰ». ولذلك يقول د. إحسان عباس: «ومنذ البداية يبدو قدامة متأثرًا بالمنطق الأرسطي، متجاوزا المفهوم اليوناني للشعر، في آن معًا»(١).

ومن ذلك: عنايته بالتقسيمات والمقابلات، واستعمال المقاييس المنطقية في النقد الشعري. وقد كان الدافع له إلىٰ ذلك: التخلص من فوضىٰ الأذواق ومحاولة ضبط الحس النقدي.

يقول إحسان عباس أيضا: «كان الرجل يحس بما انتشر في مجال النقد من فوضىٰ ذوقية، وكان حريصًا علىٰ أن يعلم النقد، مثلما كان حريصًا علىٰ أن يكون علمه قائمًا علىٰ منطق لا يختل، ولذلك حول النقد -مخلصًا في محاولته- إلىٰ منطقية ذهنية وقواعد مدرسية ووضع له مصطلحا..»(٢).

وهنالك أمور أخرىٰ ذكرها بعض النقاد المعاصرين حول تأثر قدامة باليونان، أراها محل نقاش ونظر(٣).

---

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب: ١٩١.

(٢) تاريخ النقد الأدبي عند العرب: ١٩٤.

(٣) من ذلك: نظرية الوسط في الفضائل، أي أن كل واحدة من الفضائل النفسية وسط بين مذمومين؛ ومن ذلك: رده جميع فنون الشعر إلىٰ المدح والهجاء ليخضعها لنظرية أرسطو المتعلقة بالمنافرات؛ ومن ذلك: متابعته لأرسطو في تجويزه الغلو للشعراء مطلقا؛ ونحو ذلك.

هذا ما يتعلق بالأدب، وأما سائر علوم الشريعة من تفسير وفقه وتاريخ وغيرها، فأثر العلوم العقلية من المنطق والفلسفة في أساليبها التعبيرية واضح جدا.

فتأمل مثلا كتب التفسير التي صنفها المتأخرون، مثل: تفسير الرازي والنسفي وأبي السعود والألوسي، وغيرهم؛ وقارن أساليبهم بأساليب الصحابة والتابعين وأئمة السلف في تفسير آيات القرآن الكريم.

وتأمل أيضا بعض ما صنفه المتأخرون في علم مصطلح الحديث، مثل: نخبة الفكر وشرحها، أو في شروح الحديث، مثل: فتح الباري؛ وقارن ذلك بالمأثور عن المتقدمين من المحدّثين.

وتأمل كتب الفقه المذهبي المتأخرة، وقارنها بالمنقول في الفقه عن المجتهدين الأولين.

أما أصول الفقه، فالأمر فيه أجلىٰ وأوضح. فأين أسلوب رسالة الشافعي من أسلوب محصول الرازي مثلا؟

وهكذا فإنك تجد في العلوم الشرعية كلها، شواهد لا تحصىٰ علىٰ تغير اللسان، وابتعاده عن اللسان الأول، بسبب تأثر «العبارة الشرعية» بالمنطق اليوناني خصوصا، وبالعلوم العقلية عموما.

❊ ❊ ❊

وأما الدرس اللغوي، فقد دخله التأثير المنطقي خصوصا

بشكل ظاهر لا تنبغي المكابرة فيه[١]. إلا أنني لا أغلو مع الغلاة الذين يزعمون أن علوم العربية -خاصة النحو الذي هو أساسها- نشأت بأثر يوناني خالص، ويتلمسون الأدلة علىٰ ذلك من بعض التشابه بين المصطلحات والتعليلات النحوية الأصيلة، وما يماثلها في الثقافة اليونانية.

وهذا أمر لا أرتضيه لضعف حجته، وأرىٰ أن النحو علم عربي خالص، نشأ لدوافع ذاتية من داخل الحضارة الإسلامية، وبني علىٰ تتبع المادة اللغوية العربية بقطع النظر عن المستقر في الحضارات الأخرىٰ.

وفي هذا المعنىٰ يقول د. عبده الراجحي:

«والذي لا شك فيه عندنا أن الدرس اللغوي للعربية نشأ وتطور في «مناخ» عربي؛ ومن ثم فإن محاولة فهمه من «خارج» هذا «المناخ» تؤدي إلىٰ أخطاء فضلا عما يحتف بها من أخطار. ومن الحقائق المقررة أننا لم ندرس بعد كل ما قدمه العلماء العرب من دراسات في اللغة، وعلىٰ ذلك فإن الحكم علىٰ المنهج العربي بأنه منهج «منقول» أو «غير عربي»: حكم تنقصه الدقة العلمية»[٢].

ومن الدليل علىٰ هذا، أن أئمة النحو الأولين لم يلتفتوا إلىٰ

---

(١) هنالك كتب وأبحاث كثيرة عرضت لهذا الموضوع، منها: «مناهج البحث في اللغة» لتمام حسان؛ و«إحياء النحو» لإبراهيم مصطفىٰ، و«منطق أرسطو والنحو العربي» مقال لإبراهيم بيومي في مجلة مجمع اللغة العربية.

(٢) فقه اللغة في الكتب العربية، لعبده الراجحي: ١٧٥.

الصناعة المنطقية في التعريفات. فتجد سيبويه مثلا لا يرهق نفسه بإيراد الحد الجامع المانع، وإنما يكتفي بالتعريف بالمثال، فيقول مثلا:

«فالكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنىٰ ليس باسم ولا فعل. فالاسم رجل وفرس وحائط. وأما الفعل فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء وبنيت لما مضىٰ ولما يكون ولم يقع وما هو كائن لم ينقطع. (..) والأحداث نحو الضرب والحمد والقتل. وأما ما جاء لمعنىٰ وليس باسم ولا فعل فنحو: ثم وسوف وواو القسم ولام الإضافة ونحوها»[1].

ولكن حال النشأة تغير فيما بعد، ودخل المنطق اليوناني بقوة إلىٰ علم النحو خصوصا، وعلوم العربية عموما.

وأنكر من أنكر من الأئمة تسلط صناعة المنطق علىٰ النحو، فقال الإمام أبو محمد عبد الله بن السيد البطليوسي في كتابه الموسوم بكتاب المسائل: «وقع البحث بيني وبين رجل من أهل الأدب في مسائل نحوية فجعل يكثر من ذكر المحمول والموضوع والألفاظ المنطقية، فقلت له: صناعة النحو يستعمل فيها مجازات ومسامحات لا يستعملها أهل المنطق. وقد قال أهل الفلسفة: يجب حمل كل صناعة علىٰ القوانين المتعارفة بين أهلها، وكانوا يرون أن إدخال صناعة في أخرىٰ إنما يكون لجهل المتكلم أو لقصد

---

(1) كتاب سيبويه: ١/١٢.

المغالطة والاستراحة بالانتقال من صناعة إلىٰ أخرىٰ عند ضيق الكلام عليهم»[1].

ومن أظهر مجالات تأثر النحو بالمنطق: صناعةُ الحدود التي صارت منتشرة في المصنفات النحوية، مثل قولهم: (المبتدأ اسم أو بمنزلته، مجرد عن العوامل اللفظية أو بمنزلته، مخبَر عنه، أو وصف رافع لمكتفىٰ به).

وتأثر النحو أيضا بعلم الكلام، حتىٰ قال أبو الفتح ابن جني:

«اعلم أن علل النحويين -وأعنىٰ بذلك حذاقهم المتقنين لا ألفافهم المستضعفَين- أقرب إلىٰ علل المتكلمين منها إلىٰ علل المتفقهين»[2].

وتأمل مثلا هذا النص من كلام ابن جني، تتبين لك مواقع التأثير الكلامي جلية واضحة:

«اعلم أن التضادّ في هذه اللغة جارٍ مجَرىٰ التضادّ عند ذوي الكلامِ. فإذا ترادف الضدّان في شيء منها كان الحكم منهما للطارئ فأزال الأوّل. وذلك كلامِ التعريف إذا دخلت علىٰ المنوّن حُذِف لها تنوينه كرجل والرجل وغلام والغلام. وذلك أن اللام للتعريف والتنوين من دلائل التنكير. فلمَّا ترادفا علىٰ الكلمة تضادّا

---

(١) صون المنطق والكلام للسيوطي: ٢٠٠. وفي الكتاب نفسه ص٢٤٣-٢٥٤ نقل المناظرة المشهورة بين متىٰ بن يونس القنائي الفيلسوف وأبي سعيد السيرافي، ومن ضمن ما فيها استدلالُ السيرافي علىٰ عدم حاجة النحو العربي إلىٰ المنطق.

(٢) الخصائص: ١/٤٨.

فكان الحكم لطارئهما وهو اللام. وهذا جارٍ مجرىٰ الضدّين المترادِفين علىٰ المحلّ الواحد كالأسود يطرأ عليه البياض والساكِن تطرأ عليه الحركة فالحكم للثاني منهما. ولولا أن الحكم للطارئ لما تضادّ في الدنيا عَرَضان أو إن تضادّا أن يحفظ كل ضدّ محلّه فيحمي جانبه أن يلمّ به ضِدّ له فكان (الساكن أبدا ساكنا والمتحرك أبدا متحركا) والأسود أبدا أسود والأبيض أبدا أبيض، لأنه كان كلّما همّ الضدّ بوروده علىٰ المحل الذي فيه ضدّه نفىٰ المقيمُ به الواردَ عليه فلم يوجده إليه طريقا ولا عليه سبيلا»[(١)].

ولم تسلم علوم العربية الأخرىٰ من الأثر المنطقي والفلسفي والكلامي، خاصة علم البلاغة الذي أسسه المصنفون في إعجاز القرآن -كما هو معلوم. ولما كان أغلب هؤلاء من المتكلمين، فإنهم اصطحبوا عدّتهم الكلامية والمنطقية في الدرس البلاغي.

ومن مظاهر هذا الأثر في علم البلاغة:

- الكلام علىٰ الأسباب والمسببات في مبحث المجاز المرسل.
- الكلام علىٰ الفاعل الحقيقي والفاعل المجازي في علم المعاني.
- المدخل المنطقي المتعلق بالدلالة وشروطها، وأقسامها الوضعية والعقلية.
- إدخال بعض المباحث المنطقية في كتب البلاغة، كما فعل

---

(١) الخصائص: ١/ ٦٢.

السكاكي حين أدخل في «مفتاح العلوم» مباحثَ الاستدلال، وعلل ذلك بأن «تتبع تراكيب الكلام الاستدلالي ومعرفة خواصها، مما يلزم صاحب علم المعاني والبيان»[1].

• الاعتماد علىٰ المقاييس والقواعد المنطقية في الحكم بحسن الكلام وقبحه، دون نظر إلىٰ معاني الجمال وقضايا الذوق السليم.

• العناية بدقة التعريفات للمصطلحات البلاغية.

• غلبة النزعة الجدلية الحجاجية علىٰ أغلب مباحث البلاغة.

وقُل نظير ما سبق في العلوم اللغوية الأخرىٰ.

---

(١) مفتاح العلوم (ت. أكرم عثمان يوسف): ٦٧٣.

المبحث الثاني

أثر التطور التاريخي

يبدأ التاريخ المعروف للغة العربية قبل الإسلام بعقود قليلة. والمقصود بذلك ما وصل إلينا من المادة اللغوية الثابتة بيقين، أو بما يشبه اليقين من الظن الراجح[1].

ولم تبق اللغة العربية جامدة علىٰ صورتها الأولىٰ هذه. بل وقعت عليها تطويرات متلاحقة، بدءا بالأثر الإسلامي الذي امتزجت بسببه العربية بالإسلام إلىٰ الأبد، وانتهاءً بأثر «الاستعمار» الغربي في العصر الحديث.

وحين أقرر هنا وقوع تطورات في اللغة العربية، فإنني لا أغفل عن أنها قد حافظت مع ذلك علىٰ هيكلها العام سالما، بسبب ارتباطها بالقرآن الكريم والدين الإسلامي الخالد. وهكذا عاشت

(١) يقول الجاحظ: «فإذا استظهرنا الشعرَ وجدنا له إلىٰ أن جاء الله بالإسلام خمسين ومائةَ عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام» (الحيوان: ١/ ٧٤). والشعر أول ما اعتنىٰ الرواة بنقله قبل الإسلام من المادة اللغوية عموما. ويراجع: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، لجواد علي: الفصل ١٥٦: أولية الشعر الجاهلي.

أكثر من خمسة عشر قرنا تؤدي دورها علىٰ أكمل وجه، وتستوعب المعارف الحضارية، والثقافات المتنوعة؛ مع ثبات قواعد الاشتقاق، وأوزان التصريف، وأصول الإعراب؛ مما يعد عند مؤرخي اللغات أمرا شبيها بالمعجزات!

وقد كانت اللغة العربية في الأصل محصورة في جزيرة العرب، ثم لما جاء الإسلام انتشرت في أصقاع الدنيا. وذلك أن العرب حين حملوا الإسلام إلىٰ العالم، حملوا معه لغة القرآن، فاستعربت شعوبٌ كثيرة في غرب آسيا وشمال إفريقيا وتركت لغاتها الأولىٰ وآثرت اللسان العربي. بل إن شعوبا أخرىٰ كثيرة في وسط آسيا (فارس وخراسان وما وراء النهر وغيرها) تعرّبت أيضا، ثم محيت العربية منها بعد تتابع القرون، لأسباب سيأتي ذكر بعضها إن شاء الله.

وقد شارك هؤلاء الأعاجم الذين دخلوا الإسلام في الثقافة العربية الإسلامية، مشاركة كاملة مؤثرة، وأثرَوا علوم الشرع والعربية بما لا يحصىٰ من المؤلفات.

• أسباب التطور اللغوي:

وعند رصد أسباب التطور الذي عرفته اللغة العربية، فإننا نجد أسبابا كثيرة، يمكنني اختصارها في الآتي:

١- العامل الزمني:

وهذا سبب يغفل عنه الكثيرون، لكنه عامل محوري في تطور

اللغات جميعها، حتىٰ مع غياب المؤثرات الخارجية. وذلك لأن طول الزمن وتعاقب الأجيال، يؤدي إلىٰ تكاثر التصرفات المختلفة في المادة اللغوية، ويتلو ذلك تطور اللغة من حيث هي.

٢- الأثر الإسلامي:

وقد أحدث الإسلام تغيرا كبيرا في اللسان العربي، فصار يدور حول القرآن والحديث النبوي. ودخلت الألفاظ الشرعية بغزارة إلىٰ قلب اللغة، ومحيت ألفاظ وتراكيب أخرىٰ لمخالفتها للشرع.

وتحولت العربية بسبب الإسلام من لغة شعرية خطابية إلىٰ لغة علمية، هي الوعاء لعلوم شرعية وعقلية كثيرة. واتسع الأمر مع حركة الترجمة، فتغيرت وظيفة اللغة العربية تغيرا جذريا.

٣- اختلاط العرب بغيرهم:

أدت حركة الفتح الإسلامي إلىٰ اختلاط العرب بالعناصر الأخرىٰ من الفرس والروم والبربر وغيرهم. ولا ريب أن هذا الاختلاط أدىٰ إلىٰ ظهور اللهجات العامية المختلفة، وإلىٰ بعض التحريف في الفصحىٰ، وانتشار اللحن.

٤- أثر الحضارات الأخرىٰ:

والمقصود بذلك الحضارات التي كانت قائمة في عهود الإسلام الأولىٰ، أو قبل ذلك، فنقلت معارفها إلىٰ الأمة الإسلامية إما بالاحتكاك المباشر وإما عن طريق حركة الترجمة.

وقد اشتهر أثر الحضارة الفارسية واليونانية خصوصا. وأغلب الباحثين علىٰ أن أثر الأول أكبر علىٰ اللغة العربية وآدابها، ويذهب بعضهم إلىٰ عكس ذلك[1].

٥- التساهل في الكلام بغير العربية:

وذلك خصوصا في المناطق التي توجد بها لغات أصلية أخرىٰ، مما يؤدي إلىٰ سيطرة هذه اللغات علىٰ العربية وتأثيرها فيها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

«ولهذا كان المسلمون المتقدمون لما سكنوا أرض الشام ومصر، ولغة أهلهما رومية، وأرض العراق وخراسان ولغة أهلهما فارسية، وأهل المغرب ولغة أهلها بربرية؛ عوّدوا أهل هذه البلاد العربية، حتىٰ غلبت علىٰ أهل هذه الأمصار: مسلمهم وكافرهم، وهكذا كانت خراسان قديما.

ثم إنهم تساهلوا في أمر اللغة، واعتادوا الخطاب بالفارسية، حتىٰ غلبت عليهم وصارت العربية مهجورة عند كثير منهم. ولا ريب أن هذا مكروه، وإنما الطريق الحسن اعتياد الخطاب بالعربية، حتىٰ يتلقنها الصغار في المكاتب وفي الدور فيظهر شعار

---

(١) مثل طه حسين في كتابه «من حديث الشعر والنثر»، إذ يذهب إلىٰ أن التأثير اليوناني علىٰ الأدب العربي أقوىٰ من التأثير الفارسي (ص٢٩)، ويستخرج بشيء من التكلف أوجه تأثر عبد الحميد الكاتب بالأدب اليوناني (ص ٤٣ وما بعدها)، وكذا ابن المقفع (ص٤٨).

الإسلام وأهله، ويكون ذلك أسهل علىٰ أهل الإسلام في فقه معاني الكتاب والسنة وكلام السلف؛ بخلاف من اعتاد لغة، ثم أراد أن ينتقل إلىٰ أخرىٰ فإنه يصعب»[1].

- **مظاهر التطور اللغوي**

للتطور اللغوي مظهران بارزان:

أولهما: تطور الألفاظ:

وذلك إما بأن يتغير معنىٰ اللفظ، فيراد به معنىٰ معين في زمن ما، ثم يهجر ذلك المعنىٰ بعد مدة معينة، ويصبح للفظ معنىٰ آخر. ولا بد أن يكون بين المعنيين مناسبة تبيح هذا الانتقال، وإلا كان ذلك معدودا من أغلاط العامة.

ومن الأوجه المشهورة في هذا المقام: الألفاظ الشرعية، كالصلاة والزكاة والصيام والنفاق ونحوها، فإنها كانت قبل الإسلام تفيد معاني مخصوصة، ثم أطلقت في لسان الشرع علىٰ غيرها. واختُلف في توجيه هذا التغير، أهو بنقل اللفظ من معنىٰ لآخر، أم هو بإضافة قيود إلىٰ المعنىٰ اللغوي الأصلي، أم هو من باب الحقيقة والمجاز؟

وإما بأن يكون اللفظ مستعملا فيهجر أو العكس.

«فالاستعمال في العربية علىٰ نوعين: مهجور قد يستعمل،

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم: ١/٥٢٦.

ومستعمل قد يهجر، واحتفاظ علمائنا بالنوع الأول كأنه إرهاص لإحيائه، وفي هذا كانت المزية للعربية، إذ لا تحتفظ سائر اللغات إلا بالنوع الثاني وهو مهدد بالهجران، معرض لقوانين التغير الصوتي، فإذا أميت بالهجر لم يكن في طبائعها ما تعوض به المهجور الجديد بمهجور قديم، فتضطر إلىٰ الاستجداء من لغات أخرىٰ وأحيانا إلىٰ غصبها والسرقة منها»[1].

ويسبب هذا التطور في الدلالة أو الاستعمال، كانت ألفاظ مألوفةً في القديم فصارت من الغريب المهجور، لا تعرف معانيها إلا بعد تقليب المعاجم.

وقد يقع العكس أيضا، لأن الأدباء تتابعوا علىٰ استعمال لفظ ما، حتىٰ أخرجوه من دائرة الغريب إلىٰ دائرة المألوف المتداول. وتأمل مثلا فعل الجاحظ، حين يشرح أبياتا من الشعر، فيتكلف أن يشرح لفظ «أغذّ» قائلا: «يقال: أغذّ السير، إذا جد فيه وأسرع»[2]، وشداة الأدب اليوم يعرفون هذا اللفظ جيدا، لكثرة استعماله لدىٰ الأدباء.

والثاني: تطور التراكيب والأساليب

وذلك بسبب سريان العامية إلىٰ اللغة المكتوبة، أو بسبب تأثير العلوم المستحدثة، كما سبق بيانه في الفصل السابق.

---

(١) دراسات في فقه اللغة لصبحي الصالح: ٢٩٣.

(٢) البيان والتبيين: ١/ ٢٨٠.

فانظر أين تجد في كلام المعاصرين مثل قول سعد بن معاذ ﷺ المشهور في السيرة:

«فوالذي بعثك بالحق: لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد. وما نكره أن تلقىٰ بنا عدونا غدا، إنا لصُبر في الحرب، صُدق في اللقاء. لعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك، فسر بنا علىٰ بركة الله».

وليس في هذا الكلام مفردة واحدة، يخفىٰ معناها علىٰ الطلبة في عصرنا، ولكنهم مع ذلك عاجزون عن الإتيان بتركيب يشبه هذا الكلام الرفيع!

وارجع إلىٰ الصحف السيارة اليوم، واختر فقرة من فقارها، ثم انظر هل يخطر ببالك أن عربيا من أهل اللسان الأول ينطق بمثل ذلك؟

• المراحل الكبرىٰ للتطور اللغوي

رصد الباحثون في تاريخ الأدب التطورات اللغوية والأدبية التي عرفتها العربية وآدابها، منذ عصر الجاهلية إلىٰ العصر الحديث[١].

وليس من غرضي أن أفصل ذلك، وإنما أشير -استكمالا

(١) يراجع: تاريخ الأدب العربي للزيات؛ وسلسلة أحمد أمين: فجر الإسلام وضحاه وظهره؛ وسلسلة شوقي ضيف «تاريخ الأدب العربي»؛ و«تاريخ الأدب العربي» لعمر فروخ؛ وغيرها.

للمبحث الذي أنا بصدده- إلىٰ أشهر المراحل، وشيء من مميزاتها.

المرحلة الأولىٰ: الفتوة

وتمتد من العصر الجاهلي إلىٰ بدايات الدولة العباسية، مرورا بعصر النبوة والخلافة الراشدة، وبالعصر الأموي.

واختصت العربية في هذا العصر بالسلامة -إلىٰ حد بعيد- من الاختلاط بالألسنة الأخرىٰ، والحفاظ علىٰ الخصائص اللغوية التي تميزها. ولذلك سميت هذه الحقبة: عصر الاحتجاج، أي أن كلام شعرائها وأدبائها حجة في استنباط قواعد النحو والصرف وفي إثبات المعاني اللغوية للمفردات.

وفي هذه الحقبة، انتقلت العربية من لغة محلية لا تتجاوز جزيرة العرب، إلىٰ لغة عالمية مرتبطة بالقرآن الكريم وبالتراث الإسلامي عموما.

وامتازت اللغة في هذا العصر بالارتباط بالبيئة البدوية والبعد عن أسباب الحضارة، وندرة الاصطلاحات العلمية؛ مع قلة التكلف، وسمو المعاني.

المرحلة الثانية: التحضر

وذلك مرادف لمراحل ازدهار الدولة العباسية، والدول الأخرىٰ المنتشرة في أنحاء العالم الإسلامي، سواء مع التبعية للدولة المركزية في بغداد أو الاستقلال عنها.

وفي هذه المرحلة، خالطت العربية لغات خارجية متنوعة،

فداخلتها العجمة، ولم تعد لغةُ الأدباء حجة في علوم اللغة. وسايرت العربية النهضة الحضارية، فدخلت إليها ألفاظ الحضارة، وسرت إليها رِقتها وعذوبتها. وتطورت أغراض الأدب، وخرجت من قوقعة البيئة البدوية، فتبعت اللغة هذا التطور.

كما انتشرت الترجمة لآثار التراث اليوناني والروماني والهندي والفارسي، وازدهرت العلوم، وتطورت الحركة الفكرية. وكان أثر ذلك كله في اللغة واضحا.

ونحن إذا أردنا فهم الوحيين، وربط حركتنا العلمية بلسان الشرع الأول، فلا بد من الرجوع إلىٰ لغة الحقبة التاريخية الأولىٰ، التي هي الأصل الأصيل والأساس الركين. أما اللغة في هذا العصر الثاني، فلا أهميةَ لها، إلا من جهة ما تأخذه من لغة المرحلة الأولىٰ، وتنقله لأهل المراحل التالية.

وأما ما تفردت به من إضافات، فلا «قدسيةَ» له؛ ويمكن لأهل عصرنا أن يبتدعوا مثل ما ابتدع أهل ذلك العصر، ويضيفوا مثل ما أضافوا.

المرحلة الثالثة: الجمود

وهي المرحلة التي توازي ضعف الدولة العباسية، وما تبع ذلك من شتات سياسي، وانحدار حضاري للأمة الإسلامية.

وقد جمدت العلوم الإسلامية كلها علىٰ الموروث من المرحلة السابق، وغاب الإبداع والتجديد. ولحق ذلك اللغة، التي هي

وعاء هذه العلوم؛ فجمدت أيضا في طرائق تدريس علومها، وفي فنونها الأدبية، وفي ألفاظها وأصولها التعبيرية.

وقد استطاعت مع ذلك، أن تقاوم حملات كثيرة كادت تقضي عليها، من أخطرها: حملة التتار علىٰ العالم الإسلامي، ثم حملة الصليبيين. واعتصمت خلال ذلك بالمعاهد الإسلامية الكبرىٰ، الموجودة في كبرىٰ الحواضر الإسلامية، مثل الأزهر والقرويين والزيتونة، وغيرها. واستطاعت هذه المعاهد -علىٰ الرغم من مناهجها التقليدية وأساليبها العتيقة- أن تحمي العربية من الضياع، وأن تنقل التراث العربي العلمي والأدبي إلىٰ الأجيال اللاحقة.

وواجهت العربية أيضا، حملة أخرىٰ زمن الدولة العثمانية، أريد فيها القضاء علىٰ العربية في بعض بلاد العالم الإسلامي، وإحلال التركية محلها، في المدارس والمحاكم والإدارة وغير ذلك. لكن خرجت العربية ظافرة من هذا التحدي الجديد، بفضل حفظ الله لها، ثم بجهود الكثيرين من العلماء المحبين لهذه اللغة الشريفة.

ثم جاءت معركة أخرىٰ أخطر وأعظم، حين دخل «الاستعمار» الغربي إلىٰ بلاد المسلمين، وأدخل معه لغته المزهوة بالاكتشافات العلمية الخطيرة لعصر النهضة في أوروبا، ووجد أمامه لغة جامدة، يقوم عليها علماء يفتقرون إلىٰ الرغبة في التجديد؛ فاستطال عليهم، وكان ما كان مما سأذكر بعضه في المبحث التالي، وهو المخصص للعربية في العصر الحديث.

المبحث الثالث

التغريب اللغوي والأدبي في العصر الحديث

كل ما سبق ذكره من التغيير في اللغة العربية جَلَل إذا قورن بما وقع عليها من التحريف في هذا العصر!

وجماع الأمر في هذا التحريف أنه داخل في ما يسمّىٰ: التغريب.

والمقصود به: التغيير لموافقة ما عند الغرب، من لغة أو ثقافة أو حضارة، علىٰ وفق ما أخبر به الحبيب ﷺ حين قال: «**لتتبعن سنن الذين من قبلكم حذو القذة بالقذة**» [**رواه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري**].

وقد بدأ التغريب مع الحملات العسكرية الأولىٰ للأوروبيين علىٰ بلاد الإسلام، بدءا بالحملة الفرنسية علىٰ مصر، ومرورا بالاحتلال الفرنسي للجزائر، ثم بالحملات «الاستعمارية» التي اقتسمت فيها دولُ أوربا أراضي المسلمين.

وكانت الأمة الإسلامية في هذه المرحلة الزمنية -كما سبق بيانه- قد خرجت لتوها من مرحلة سبات حضاري، وجمود علمي

وثقافي، فلم يكن لديها ما تجابه به الغزو العسكري، ولا ما تتحصن به من الغزو الثقافي.

واستمر الاستعمار جاثما علىٰ صدر الأمة مدة طويلة من الزمن، ثم ما خرج إلا بعد أن تيقن بقاء مَن يفري في التغريب فرِيّه، مِن نخبة عربية الانتساب، غربية الهوىٰ حتىٰ النخاع!

وما فتئ الخرق يتسع، والأمة تبتعد عن أصولها، في اللغة والأدب، وفي أمور أخرىٰ كثيرة.

وقد كان للتغريب مظاهر كثيرة، يهمنا منها في بحثنا هذا نوعان اثنان: اللغوي والأدبي.

• التغريب اللغوي

اكتسحت اللغات الأوروبية أمةَ الإسلام خلال حقبة الاستعمار وما بعدها. وكان من أعظم غايات المستعمر أن تصبح اللغة العربية مثل اللاتينية، التي صارت لغة متحَفِيّة ميتة، تدرس كما تدرس الآثار التاريخية القديمة.

ولأجل الوصول إلىٰ هذه الغاية، سعىٰ المستعمر إلىٰ تشجيع اللهجات المحلية في مختلف أقطار الأمة -خاصة البلاد العربية منها- وذلك لأن تعدد اللغات من شأنه أن يقتل اللسان العربي الفصيح، ويقتل كل ما يبنىٰ عليه من تراث شرعي وأدبي.

كما سعىٰ أيضا إلىٰ الطعن في اللغة العربية، واتهامها بالقصور عن تحمل الحضارة الحديثة، واتهام حروفها، وأصول

نحوها وصرفها، وقواعدِ إملائها، بالصعوبة والتعقيد. ومرادهم من هذه الاتهامات: تمهيد الطريق إلىٰ الدعوة إلىٰ العامية، واستخدام الحروف اللاتينية لكتابة العربية، وتغيير الشعر العمودي، وما أشبه ذلك.

وقد كان للمغرب الإسلامي الكبير النصيب الأوفىٰ من هذه الهجمات، فقد حاول المستعمر الفرنسي أن يمحو العربية في هذه البلاد، ويحلّ الفرنسية بديلا عنها في التعليم والإعلام ومناحي الثقافة جميعها.

ولولا فضل الله ومنته، ثم جهود المصلحين من أهل الدين، لكان مصير بلاد المغرب يشبه مصير بلدان آسيا التي صارت أعجمية اللسان، بعد أن كانت تثمر ألوانا من النتاج العربي الثري.

وبعد خروج المستعمر الفرنسي، بقي أذنابه يكافحون لكي تستمر الفرنسية في سيطرتها اللغوية علىٰ هذه البلاد. ومن هنا تفهم إصرار المتحكمين علىٰ بقاء الهيمنة الفرنسية، علىٰ الرغم من كونها لغة مهزومة في العالم أمام الاكتساح الطاغي للانجليزية.

وفي المشرق، كان من أعظم آثار المستعمر وأتباعه: الدعوة إلىٰ العامية في مصر والشام. وهي دعوة خطيرة ما تزال آثارها قائمة، مع كثرة من تصدّىٰ لها من أنصار الفصحىٰ.

ولأجل هذه الحملات الكثيرة التي تعرضت لها العربية في العصر الحديث، وُجدت مقاومة عنيفة، حمل رايتها كثير من محبي اللغة العربية، واتجهت مقاومتهم في وجهتين اثنتين:

• الأولىٰ: الدفاع عن العربية وأصولها وقواعدها وآدابها، ومدافعة العامية واللغات الأجنبية،

• والثانية: السعي إلىٰ نشر العربية في عموم الأمة، وتدريسها للأجيال المتعاقبة، وتيسير وسائل تعليمها للناشئة، وتعريب المصطلحات العلمية الجديدة.

• التغريب الأدبي

عَلِم المستعمر -وعلم أذنابه من بعده- أن أساس الإسلام العربية، وأن أساس العربية آدابها، فبذل جهودا كبيرة في طمس الآداب العربية، وإقامة المناهج الأدبية الأوروبية في موضعها.

ووجد في الأمة في هذا العصر من يكتب نصوصا أدبية، ظاهرها عربي ومخبرها أعجمي!

وانتشر التنكر للأدب القديم، ولطرائق أدباء العربية في التعبير، ومناهجهم وأغراضهم وأساليبهم.

وفشا بين أدباء الأمة الطعن علىٰ الشعر العمودي، وعلىٰ ترتيب الشعراء المتقدمين لقصائدهم؛ واشتهر نقد الوحدة المعنوية للقصيدة العربية، واختلاف غرض القصيدة وتنقل الشاعر من منادمة الأطلال إلىٰ الغزل إلىٰ المديح، وهلم جرا.

وكثر هذا النقد والطعن من أناس لم يتشبعوا بآداب العربية وعلومها، بل ولجوا عالم الأدب من باب الانبهار بما لدىٰ الغرب

من ثقافة، فكثرت لديهم الدعوة للتجديد في كل شيء، لا لشيء إلا ليقال عنهم: مجدّدون!

ويعجبني قول العقاد:

«.. وليس من المجددين شعراء في هذا الزمان ينظمون في وصف الطيارة لأن الأقدمين نظموا في وصف البعير.. وليس من المجددين شاعر يتحاشىٰ كل مديح لكيلا يتهم بالتقليد.. وليس من المجددين من يصف المعارض الصناعية لأنها من مستحدثات هذا الزمان وهو يظن الحداثة أن يصف كل حديث فحسب..»[1].

ثم انتشر أدب الحداثة، بما فيه من الغموض، واستلهام الأساطير اليونانية، والاستعمال الكثيف للرموز التي تجعله بعيدا أشد ما يكون البعد عن أصول الأدب العربي.

---

(١) ساعات بين الكتب: ١٧٢.

الفصل الثاني

نقائص تدريس العربية

بينتُ في الفصل الأول معالم العقبة الأولىٰ التي تعترض سبيل من يقصد إلىٰ تعلم اللغة العربية الفصيحة، وهي: ما جرىٰ علىٰ اللغة العربية من التطور -أو قُل: من الانحدار-، حتىٰ صارت اللغة العصرية منبتّة الصلة باللسان العربي الأول، الذي جاءت علىٰ أصوله نصوص الوحيين، وكلام أئمة السلف، وفحول الأدباء.

وأنا في هذا الفصل الثاني قاصدٌ إلىٰ تفصيل العقبة الثانية، وهي تلك المتعلقةُ بوسائل تحصيل الملكة اللغوية؛ أو قُل -إن شئت- بطرق تدريس اللغة العربية في عصرنا، وما يكتنفها من نقائص وعيوب، تمنع تمام التحصيل للملكة اللغوية، وتحول دون الوصول إلىٰ الذوق العربي الفصيح، والمهارة اللغوية الراسخة.

والمتأمل لطرق التدريس هذه، لا يملك إلا أن يجعلها علىٰ قسمين كبيرين:

أحدهما: الطريقة التقليدية، المبنية علىٰ حفظ المتون ودراستها.

والثاني: الطريقة الأكاديمية العصرية، المنتشرة في المدارس والجامعات.

فليكن المبحثان القادمان -إذن- في بيان هذين القسمين.

والله الموفق.

المبحث الأول

التدريس التقليدي وتضخم المعلومات

لا يرتاب عارف بتاريخ دراسة العلوم وتوارثها بين الأجيال المتعاقبة، أن ما ابتدعه علماء الأمة الإسلامية في هذا المجال، يمكن عدّه ضمن أفضل الطرق وأنجعها.

ومن الدليل علىٰ ذلك: أن هذه الطريقة أثمرت نهضة علمية وحضارية هائلة، ممتدة علىٰ قرون متطاولة في الزمان، وعلىٰ أوطان متباعدة في المكان. وأن إشعاع هذه النهضة لم يقتصر علىٰ العلوم الشرعية الخالصة، بل تعدّاها إلىٰ سائر المعارف الإنسانية التي كانت متداولة في تلك العصور.

ولو شئنا الاختصارَ لقلنا إن أساس هذه الطريقة: دراسة المتون.

ولكنه اختصار مخلّ بما يمكن أن ينضوي تحت هذه العبارة من تعقيد وتفصيل.

فالمختصرات في علوم اللغة والشريعة وغيرهما جاءت لسدّ لحاجة علمية، استدعاها توسع العلوم وانتشار المعارف، وضعف الهمم عن التعامل المباشر مع المؤلفات الضخمة التي سطّرتها

أقلام المبدعين الأوائل. فكان الاختصار لتيسير حفظ المسائل، وحسن ترتيبها في أذهان الطلبة، بعيدا عن الاستطرادات والتفصيلات والاستدلالات، التي لا يكاد يخلو منها كتاب من الكتب الأصلية في العلوم المختلفة.

وسُميت هذه المختصرات متونا، واستأسد فيها النظم علىٰ النثر، لأن الأول أعلق بالذهن من الثاني.

وطال العهد، فاحتاج الطلبة إلىٰ فك رموز هذه المختصرات، التي قارب الإيجازُ فيها حد الإلغاز. فكتبت شروحٌ -وعلىٰ الشروح حواش- تحل ألفاظها، وتقيد مطلقها، وتبين مجملها. وسدّت الحلقة، فإذا المدرّسون والطلبة قد عادوا إلىٰ التطويل الذي فروا منه، ولكن بعد أن كلفتهم هذه الرحلة الطويلة ثمنا باهضا، هو: البعد عن المعين الأصلي، والتشرب بأساليب المناطقة والمتكلمين، والتضخم السرطاني للمعلومات التي يتلقاها الطالب، ويكون كثير منها -أو أكثرها- من قبيل الشقشقة اللفظية، والمماحكة المتعنتة، التي لا طائل وراءها!

وقبل أن أفصّل النقائص التي طبعت هذه الطريقة التقليدية للتدريس، لا يسعني إلا أن أسجل كلمة ثناء علىٰ المتون وأربابها، لكي يستقيم الميزان ويسلم من التطفيف المذموم، ولكي يعلم القارئ أن هذه الطريقة -علىٰ علاتها- قد تخرّج بها خلق من أكابر العلماء، يندر أن يوجد لهم نظير بين المتخرجين بالطرق الجامعية العصرية.

يقول العلامة محمود الطناحي رحمه الله في بيان هذا المعنىٰ[1]:

(علىٰ أن أخطر ما في هذه القضية أن يقترن تعليم النحو من خلال المذكرات والمختصرات بالطعن علىٰ أئمة النحاة والإزراء بتصانيفهم وغياب المنهجية في تآليفهم ومحاكمتهم إلىٰ مناهج غربية ظهرت بعدهم بقرون.

ومما لا شك فيه أن أساتذتنا الأفاضل، وزملاءنا الأكرمين الذين يدورون في هذا الفلك إنما ينتمون جميعا إلىٰ الجيل العظيم: جيل المتون والحواشي، نعم كلهم من جيل الحفظة ... حفظة القرآن الكريم والمتون والمنظومات، وهذا شيء أعرفه تماما، وبخاصة عند أبناء كليتي: دار العلوم، من الجيل الذي سبقني والذي زاملني والذي جاء بعدي بقليل، فهؤلاء جميعا قد تعلموا النحو من خلال الكتاب القديم، علىٰ هذا السياق، وبذلك الترتيب: التحفة السنية بشرح المقدمة الأجرومية - تنقيح الأزهرية للشيخ خالد الأزهري - قطر الندىٰ وبل الصدىٰ - شذور الذهب في معرفة كلام العرب، كلاهما لابن هشام - شرح ابن عقيل علىٰ ألفية ابن مالك - أوضح المسالك علىٰ ألفية ابن مالك لابن هشام - شرح الأشموني علىٰ ألفية ابن مالك مع حاشية الصبان عليه.

وبهذه المسيرة الأصيلة الضخمة استطاع أساتذتنا وزملاؤنا أن يفقهوا النحو ويبرعوا فيه ثم يكتبوا مذكراتهم ومختصراتهم. وأيضا

(١) مقال عنوانه «جيل المتون»، ضمن مجموع مقالاته، ١/ ١٤٠-١٤١.

نقدهم للفكر النحوي. ولو أنهم تربوا من أول أمرهم علىٰ المذكرات وتعلموا من المختصرات لما فقهوا ولما برعوا، ولما كتبوا «نحوهم الكافي والشافي والصافي والوافي»).

والمقصود بهذا النقل: التنبيهُ علىٰ أن النقد ينبغي أن يكون باعتدال، فلا يتجاوز حدوده إلىٰ درجة التنقيص والازدراء، كما هو مشاهد عند بعض من تشبع بالمناهج البحثية الغربية، ووِطابه فارغة من العلم -علىٰ ما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالىٰ.

وطريقة المتون تمنح سالكها ثروة علمية زاخرة، وتعينه علىٰ تنمية مجموعة من المهارات، منها:

• القدرة علىٰ جمع المتفرق من المباحث العلمية، وترسيخها في الذهن علىٰ هيئةٍ محكمة الترتيب، بحيث يُلحق حافظ المتن -عند المطالعة والتوسع العلمي- كلَّ فائدة مستجدة بموضعها اللائق بها، حتىٰ يكتمل البناء العلمي.

• القدرة علىٰ استحضار المسائل والدلائل. والذي لا يحفظ المتون، يعجز عن استرجاع المعلومات التي قرأها وفهمها، مع عدم ارتيابه في معرفتها.

• الفهم الجيد، فإن حفظ المعلومات يساعد علىٰ فهمها. وهذا شيء قد يستغربه من نشأ علىٰ نصب المعارضة بين الحفظ والفهم، وعدّهما خصمين لا يجتمعان. والحق، أن التجربة تدل علىٰ أن حفظ الكلام، وما يلزم منه من تكرار ومراجعة وإدامة نظر

واستحضار في أوقات مختلفة، يفتح مغلق المعاني، ويذلل صعوبات الفهم.

وقديما نقل اللغوي العبقري أبو الفتح ابن جني، عن شيخه الصاعقة أبي علي الفارسي أنه قال: قال لنا أبو بكر ابن السراج: «إذا لم تفهموا كلامي فاحفظوه، فإنكم إذا حفظتموه فهمتموه»[1].

• تنمية القدرة علىٰ التعامل مع اللفظ المغلق، والتعبير الغامض. وذلك لأن المتون تؤلّف بعبارة مختصرة عسيرة، متمنعة علىٰ الفهم باديَ النظر. وما يبذله الطالب من الجهد في حل مقفلها -علىٰ مفاسده التي سيأتي بيان بعضها- لا يخلو من مصلحة ظاهرة، هي شحذ الذهن، واعتياد التعامل مع المصاعب الفكرية.

• تحقيق التكامل المعرفي بين الفنون المختلفة. فالطالب يجد في شروح المتن الفقهي استطرادات يراجع بها بعض مباحث النحو، وفي شروح متن البلاغة إشارات لبعض المباحث العقدية، وهلمّ جرا. وهذا كله كالمنعدم في الكتابة المنهجية الحديثة، التي تراعي أعراف التخصص إلىٰ حد التقديس.

ويمكن للمتتبع أن يستخرج فوائد أخرىٰ كثيرة، لا بد من استحضارها قبل الكلام عن العيوب والنقائص.

ليس العيب في فكرة اختصار الكتب لتسهيل حفظها، فهي

---

(١) الخصائص لابن جني: ١/ ٢١٦.

طريقة أوجدَتها الحاجة، بعد تمدد العلوم، وكثافة التصنيف فيها، مع تصاغر همم الطلاب عن دراستها.

ولكن العيب -في نظري- يتركز في محورين اثنين:

أولهما: في المضمون المدرّس،

والثاني: في وسائل التدريس.

• إشكالات المضمون المدرّس

وهذه الإشكالات سببها الجمود علىٰ متون مخصوصة مشتهرة في كل فن من فنون العربية، وعدم الجرأة علىٰ التعامل مع متون أو كتب أخرىٰ أقل شهرة وتداولا، وإن كانت أعظم نفعا.

ولا ريب أن هذا الجمود راجع -في معظمه- إلىٰ آفة التقليد التي استشرت في الأمة في عصورها الأخيرة. ولكن يمكننا أن نصنف الأسباب نوعين اثنين:

أسباب ذاتية: وهي ما يعتري كثيرا من المدرّسين من الكسل عن استحداث مضامين تدريسية مخالفة لما اعتادوه ودرسوه عند شيوخهم، والجبن عن مخالفة السائد في البيئة العلمية التقليدية.

وأسباب موضوعية: وهي أن المتون المشهورة مخدومة بما يكفي من الشروح والحواشي، فيسهل علىٰ المدرّس حل ألفاظها واستخراج مكنوناتها، ويسهل علىٰ الطالب فهم المواضع المغلقة بالبحث القليل، إن لم يجد عند مدرّسه بغيته.

ويزاد علىٰ ما سبق، أن الطالب يتحرك في إطار بيئة علمية

معينة، يعسر عليه تجاوزها لارتباطه بها تأثيرا وتأثرا. ولذلك يقبح به أن يجهل المتون المتداولة في هذه البيئة، وإلا كان كالغرس المنبتّ عن تربته، أو السمك المنقطع عن بحيرته! والطالب إذا تعلم المتون غير المشهورة، احتاج بعد ذلك إلىٰ الرجوع علىٰ عقبيه، ليتعلم المشهور المتداول، فكان الجهد في حقه مضاعفا، والبلاء كبيرا!

ولا يمكن حل هذا الإشكال إلا بجهد من كبار العلماء المنظور إليهم والمقتدىٰ بفعلهم، يجعل غايته اعتماد متون بدلا من أخرىٰ، وتغيير منهج الدراسة كاملا. ثم يتبعهم علىٰ ذلك عامة المدرّسين، الذي لا قدرة لهم علىٰ المواجهة الفردية لارتباطات البيئة.

وسنذكر بعض النماذج التي يتبين بها المعنىٰ المراد.

في علم الصرف، نظم العلامة ابن مالك منظومته المشهورة (لامية الأفعال)، لتكون مكمّلة لأبواب الصرف من ألفيته في النحو والصرف، المسماة (الخلاصة). وقد اختار ابن مالك أن يجمع في لاميته بعض الأفعال الشاذة المخالفة للقاعدة في كل باب من أبواب الثلاثي المجرد مثلا، ونظَم هذه الأفعال بتركيز شديد متلاحقة، لا يربط بينها رابط، فجاءت صعبة الحفظ والاستحضار، سهلة التفلّت من الأذهان.

لكنه حين جمع لم يستوعب، فجاء بحرق الحضرمي، وبعده الحسن بن زين، فجمعا من معاجم اللغة زيادات أخرىٰ علىٰ جمع ابن مالك، ونظما ذلك في أبيات لا تقل عسرا عن أبيات الأصل.

فتأمل مثلا هذه الزيادة التي تشبه رقية العقرب:

وخـبّ صـبّ وطـبّ لـجّ بـخّ وودْ
ـدَ بـرّ لـذّ وشَـلّـت كـفُّـه شـلَـلا
قـرّت وحـرّ ومـرّ مـسّ هـشّ لـه
وبـشّ سـفّ شـمّ ضـنّ مـغْ زلِـلا

وهما مع ذلك لم يستوعبا[1]!

ونتيجة هذه الرحلة، أن الطالب ينشغل بحفظ أبيات صعبة شديدة التفلت، لا تنفعه كثيرا لأنه بعد حفظها لا يستطيع الجزم بأنه قد أحاط بالاستثناءات اللغوية جميعها!

وأما لبّ علم الصرف، كقواعد تصريف الأفعال المسندة إلىٰ الضمائر، فغَناء هذا النظم فيه قليل، وما يذكر فيه من الشواذ والاستثناءات باللغة ألصق منه بالصرف!

وهنا مثال آخر يؤكد هذا المعنىٰ، وهو متن الرامزة في علم العروض.

---

(١) وقد غلبتني شهوة النظم حين كنت أدرّس النظم بزيادات الحضرمي وابن زين (أي بالاخضرار والاحمرار)، فنظمتُ بعض الزيادات، سالكا الطريق نفسه! ومن ذلك قولي في نظم الأفعال الستة المضعفة التي علىٰ فعُل:

لـبُـبـت مـغ عـزُزَتْ، ودمّ شـرَّ وضـبّـ
ـبَ فـكَّ، أولُـهـا بـالاتـفـاقِ حَـلا

أي: اتفق اللغويون علىٰ الأول منها، وسائرها منقول عن بعضهم.

فهذه منظومة صعبة المنال جدا، لما فيها من الرموز التي تحتاج عند فك طلاسمها إلىٰ جهد بليغ، من الأفضل أن يستثمر في اكتساب مهارة التعامل مع الأوزان، التي هي المقصد الأول لتعلم علم العروض!

وإن أريد بالمتن حفظ الاصطلاحات العروضية، فمن الممكن الاستغناء بمتون أخرىٰ أيسر أسلوبا، وأسهل في الحفظ، كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله.

ومن إشكالات المتون أيضا: الحشو والتطويل، الذي يرهق الطلبة عند الحفظ في غير كبير فائدة ترجع عليهم.

ومن أمثلة ذلك: أن الأخضري جعل لـ(الجوهر المكنون) في البلاغة، مقدمة من أربعة وعشرين (٢٤) بيتا، مع أن عدد أبيات النظم كله: واحد وتسعون ومئتان (٢٩١)!

وبالمقابل فمقدمة ألفية ابن مالك في النحو: سبعة (٠٧) أبيات لا غير. فنسبة المقدمة إلىٰ المتن الكامل في نظم الأخضري: ٨,٢٥٪، وفي الألفية ٠,٧٪!

ومن الإشكالات أيضا: سوء ترتيب المتون، بأن يدرّس للطالب المبتدئ ما يلائم المنتهي.

ومن أشهر الأمثلة: أن أول ما يدرس في علم الصرف في المنهجية التقليدية هو متن «لامية الأفعال»، لأنه أصغر المتون المشتهرة المخدومة في هذا الفن. ولأجل ذلك، يظن الكثيرون أن اللامية من متون المبتدئين.

وليس الأمر كذلك، بل هو متن يأتي بعد ألفية ابن مالك في الترتيب. وبعبارة أخرىٰ: فالمنهج العلمي الصحيح يقتضي دراسة النحو أولا، إلىٰ أن يبلغ الطالب مرحلة الألفية، فيدرس في آخرها بعض مسائل الصرف، ثم يكملها بتصريف الأفعال من اللامية. وبعض المدرّسين يعكس الترتيب، حرصا منه علىٰ البدء بعلمي النحو والصرف معا، فيقرر علىٰ الطلبة الأجرومية مع لامية الأفعال. فيجد الطالب المبتدئ أمامه رموزا وطلاسم لا قبل له بالتعامل معها!

- **إشكالات وسائل التدريس**

تزاد علىٰ الإشكالات المتعلقة بالمضمون المدرّس، إشكالاتٌ أخرىٰ مرتبطة بالقصور الشديد في تطبيق هذا المضمون - علىٰ علّاته!

والحق أن جميع ما سبق ذكره من الإشكالات، يمكن تداركه بمنهجية تعليمية متكاملة، تسد الثغرات، وتركز علىٰ المقاصد والغايات، وتتجاوز العوائق والمثبطات.

إلا أن حالة الجمود السائد تمنع تطوير الدراسة، بل تزيد صعوبات علىٰ صعوبات، حتىٰ تتراكم الأخطاء!

ويمكنني من خلال تجربتي الشخصية مع الطريقة التقليدية لتدريس المتون -تعلّما وتعليما-، والتي امتدت لقريب من عشرين سنة، أن أسرد بعض الأخطاء التي أراها صارت ملازمة لهذه الطريقة، يندر أن تنفك عنها.

الانشغال بدراسة الألفاظ:

يكثر في حلق تدريس المتون اللغوية، الاشتغال بالمباحث اللفظية علىٰ حساب المضامين المقصودة بالأصالة. فيقع التركيز علىٰ حل ألفاظ المتون والشروح، واستغراق الأوقات الطويلة في مراجعة الحواشي المغرقة في الصناعة اللفظية والاحتمالات العقلية.

ومما يدخل في هذا الباب من العيوب: تكلف تصحيح كلام صاحب المتن أو الشرح -ولو كان ظاهر الغلط- بإيراد صنوف من الاحتمالات اللفظية المتعسفة. وهذا مظهر من مظاهر غلبة التقليد علىٰ العقلية العلمية في القرون المتأخرة.

ومن النماذج التي لا تخلو من طرافة: الاعتناء بالإفاضة في شرح البسملة والحمدلة في أول المتن، وإن لم تكن ثابتة في النسخ المعروفة. ولكن حكم العادة غلّاب!

وأطرف من ذلك: نوع من الصناعة اللفظية يقصد بها إظهار البراعة، بأن يتكلم المدرّس عن البسملة في إطار الفن المراد تدريسه. فإن كان المتن نحويا، اعتنىٰ بإعرابها؛ وإن كان صرفيا، اعتنىٰ بأوزان كلماتها، وإن كان عروضيا اعتنىٰ بما فيها من أسباب وأوتاد، وهلم جرا!

هذا كله، مع التكرار الكثير، والاجترار لما قرره المتأخرون، دون حد أدنىٰ من الإبداع والاجتهاد.

ولا شك أن السبب في هذا كله: ظلمات التقليد المتراكمة فوق الأذهان، والاضطرار لاتباع الشروح والحواشي المتداولة - لغياب غيرها- وهي مليئة بهذه المباحث اللفظية.

ويعجبني في هذا المجال شرح ابن عقيل علىٰ ألفية ابن مالك، فإنه خال من هذه الاستطرادات الجانبية المعيقة للفهم، مركز علىٰ المضمون النحوي لا يفارقه، مع سلاسة تعبير، وحسن ترتيب(١).

فقر التمثيل:

وهذا إشكال قديم، فقد طالت شكوىٰ الناس من ضرب زيد عَمرا، فذكروا أن أعرابيا وقف علىٰ حلقة أبي زيد الأنصاري جاديا، فظن أبو زيد أنه جاء ليسأل مسألة في النحو فقال له: سل يا أعرابيّ عمّا بدا لك. فقال علىٰ البديهة:

لست للنحو جئتكم
لا ولا فيه أرغبْ

أنا ما لي ولامرئٍ
أبد الدهر يضربْ

خل زيدًا لشأنه
حيث ما شاء يذهبْ

---

(١) إلا أن فيه عيبا من نوع آخر، هو ضعف الإبداع في التمثيل، فلا يكاد يخرج عن تصريفات قيام زيد وهندا وسيأتي هذا العيب في المبحث التالي إن شاء الله.

واســــتــــمــــع قــــول عــــاشــــق
قــــد شــــجــــاه الــــتــــطــــربْ
هــــمــــه الــــدهــــر طــــفــــلــــةٌ
فــــهــــو فــــيــــهــــا يــــشــــبــــبْ[1]

والطرائف المماثلة كثيرة في كتب النحو والتراجم.

وأزيد علىٰ ضرب زيد عمرًا: قيام زيد وهند، وما تصرف من ذلك. فما أشد كراهة الذوق العصري لقول القائل مثلا: قام الزيدون وقامت الهندات وقامت الهنود!

والحق أن هذا التمثيل الموجود بوفرة في كتب النحو القديم أسهل علىٰ المؤلف والمدرّس، لأنه يصبّ التركيز كله علىٰ القاعدة النحوية بدلا من الانشغال بالبحث عن مثال ملائم في معناه ومبناه، قد لا يخلو من تشتيت لذهن المتلقي عند تأمله. ولكن الإصرار علىٰ تكرار هذه الأمثلة يضيّق أفق المتعلم جدا، ويمنعه من الانطلاق بالقاعدة النحوية من الشاهد التعليمي إلىٰ فضاء التطبيق الأدبي الرحب.

ويلتحق بما ذكر (أنبت الله البقلَ) و(بنىٰ الأميرُ المدينة)، وما أشبه ذلك من أمثلة علم البلاغة. ومثل: (ربّ نار بت أرمقها..)، و(إنما الذلفاء ياقوتة..) وما أشبهها من شواهد العروض.

---

(١) أخبار النحويين لأبي طاهر المقرئ (من الموسوعة الشاملة، ولم أقف علىٰ الكتاب).
والأبيات من مجزوء الخفيف.

وعلىٰ ذكر الشواهد الشعرية، فإنني لا أستنكر إيرادها في النحو والصرف، إن كانت من عصور الاحتجاج، لغرض الاستدلال بها علىٰ قاعدة من قواعد هذين العِلمين. وأستحضر هنا كلمة الدكتور الطناحي ﷺ يقول فيها:

(ليس من التسهيل والتيسير أن تترك التمثيل علىٰ القاعدة النحوية بالشاهد القرآني والحديثي وأشعار العرب وأمثالها لتكتب قصة متكلفة عن نزهة في القناطر الخيرية، أو زيارة إلىٰ أهرامات الجيزة، أو حكاية عن الفلاح في الحقل، لتستخرج من كل ذلك شواهدك علىٰ القاعدة النحوية والصرفية)[١].

وأما في فني البلاغة والعروض، فالعبرة بالمعاني في الأول وبالأوزان في الثاني. فالالتزام بالأمثلة والشواهد القديمة لغير مسوغ، ضرب من الجمود غير المحمود.

وقد نبه ابن خلدون علىٰ أهمية ربط الطالب بالكتب النحوية المشتملة علىٰ شواهد أدبية كثيرة، فقال عن كتاب سيبويه:

«.. فإنه لم يقتصر علىٰ قوانين الإعراب فقط، بل ملأ كتابه من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم، فكان فيه جزء صالح من تعليم هذه الملكة، فتجد العاكف عليه والمحصل له، قد حصل علىٰ حظ من كلام العرب واندرج في محفوظه في أماكنه

---

(١) مقال عنوانه (صيحة من أجل اللغة العربية): (مقالات الطناحي ١/١٣٨).

ومفاصل حاجاته. وتنبه به لشأن الملكة، فاستوفىٰ تعليمها، فكان أبلغ في الإفادة.

ومن هؤلاء المخالطين لكتاب سيبويه من يغفل عن التفطن لهذا، فيحصل علىٰ علم اللسان صناعة ولا يحصل عليه ملكة. وأما المخالطون لكتب المتأخرين العارية من ذلك، إلا من القوانين النحوية، مجردة عن أشعار العرب وكلامهم، فقلما يشعرون لذلك بأمر هذه الملكة أو يتنبهون لشأنها، فتجدهم يحسبون أنهم قد حصلوا علىٰ رتبة في لسان العرب، وهم أبعد الناس عنه.

وأهل صناعة العربية بالأندلس ومعلموها أقرب إلىٰ تحصيل هذه الملكة وتعليمها ممن سواهم، لقيامهم فيها علىٰ شواهد العرب وأمثالهم، والتفقه في الكثير من التراكيب في مجالس تعليمهم، فيسبق إلىٰ المبتدئ كثير من الملكة أثناء التعليم، فتنطبع النفس بها وتستعد إلىٰ تحصيلها وقبولها.

وأما من سواهم من أهل المغرب وإفريقية وغيرهم، فأجروا صناعة العربية مجرىٰ العلوم بحثا، وقطعوا النظر عن التفقه في تراكيب كلام العرب، إلا إن أعربوا شاهدا أو رجحوا مذهبا، من جهة الاقتضاء الذهني، لا من جهة محامل اللسان وتراكيبه. فأصبحت صناعة العربية كأنها من جملة قوانين المنطق العقلية أو الجدل، وبعدت عن مناحي اللسان وملكته وأفاد ذلك حملتها في هذه الأمصار وآفاقها البعد عن الملكة بالكلية، وكأنهم لا ينظرون في كلام العرب. وما ذلك إلا لعدولهم عن البحث في

شواهد اللسان وتراكيبه وتمييز أساليبه، وغفلتهم عن المران في ذلك للمتعلم، فهو أحسن ما تفيده الملكة في اللسان..»[1].

وقد نقلته بطوله لنفاسته، فتأمله تستفدْ!

ندرة التطبيق:

يعتني المدرّس في الطريقة التقليدية بشرح المتن، ويكون جل همّه أن يفهمه الطلبة، بقطع النظر عن قدرتهم علىٰ تطبيق القواعد المذكورة فيه علىٰ المادة اللغوية والأدبية.

فمدرّس النحو يقرر القواعد ويشرحها، ولا يهتم لتطبيقها عمليا في القراءة والكتابة. ولذلك قد يقرأ الطالب الألفية ويتقنها حفظا وفهما، ويقع مع ذلك في اللحن عند الكلام أو الكتابة.

ومدرّس الصرف لا يعتني بمسائل التمرين، وإن فعل تعمّد غرائب الأوزان التي يقل استعمالها، ولا يراد منها في الغالب غير إظهار البراعة والتميز علىٰ الأقران.

ومدرّس البلاغة يسرد المصطلحات البلاغية وتعريفاتها، ولا يطالب تلامذته بالتمرن علىٰ الكتابة البليغة، أو التدرب علىٰ الكلام الفصيح. ويقلّ في مدرّسي هذا الفن، تدريب الطلبة علىٰ استخراج قواعد البلاغة من القرآن الكريم، الذي تعدّ دراسته أساس علم البلاغة، المتطورِ من علم الإعجاز القرآني.

ومدرّس العروض والقوافي يشرح مفاتيح البحور، وألفاظ

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ٢/ ٣٨٥-٣٨٦.

الزحافات والعلل، ولا يكاد يطلب التدرّب علىٰ التقطيع وتمييز البحور، أو علىٰ نظم الشعر -من باب أولىٰ!

ونتيجة هذا كله: أن الطالب يخرج بحصيلة «معلوماتية» كبيرة بعد سنوات من التحصيل، ولكنه لا يقدر علىٰ استثمارها في تطوير مؤهلاته اللغوية، فيشعر بأن طلب العلم لم يزده شيئا ذا بال!

ضعف تعليم المهارات اللغوية:

ومما يرتبط بجانب التطبيق الذي سبق ذكره: انعدام تعليم المهارات اللغوية، بموازاة شرح المتون المقررة.

فمن هذه المهارات:

- مهارة الخطابة، والقدرة علىٰ التعبير الشفهي، في موضوعات مختلفة.
- مهارة الإيجاز والإطناب، بحسب حاجة المتلقي.
- مهارة نثر الشعر، والقدرة علىٰ التعبير الكتابي عن المعنىٰ الواحد بتراكيب متباينة.
- مهارة توليد المعاني البليغة.
- مهارة نظم الشعر.

ولأن المجال لا يسمح بتفصيل هذه المهارات، ولا بإضافة أخرىٰ، فسأكتفي بالإشارة المختصرة إلىٰ مقصودي بالمهارة الأخيرة التي سميتُها: مهارة نظم الشعر.

فأقول: إن هذا شيء زائد علىٰ مجرد تعلم التقطيع العروضي

ومعرفة أوزان البحور، وقواعد القافية. بل هي مهارة تكتسب -بعد تعلم العروض والقوافي- بالممارسة الطويلة، ويمكن اختصار مسافتها بالتطبيقات العملية المختارة.

فمن التطبيقات الملائمة مثلا:

أن يعرض علىٰ الطالب بيت مكسور الوزن أو فيه بعض عيوب القافية، ويطلب منه إصلاحه بأقل جهد، أي: دون تغيير كبير.

كأن تقول: هذا شطر بيت من مجزوء الوافر فيه خلل فكيف تصلحه، «أرىٰ الدنيا بعينيكِ»؟

فيكون الجواب مثلا:

«بعينيكِ أبصرُ الدنيا».

ومن التطبيقات أيضا: أن يطلب تغيير كلمة في بيت شعري، بكلمة أخرىٰ تقاربها في المعنىٰ، ويبقىٰ الوزن بها سالما من الكسر.

مثال: تغيير لفظ «اللذات» في قول الشاعر:

مطيعٌ غير مستعصٍ
علىٰ اللَّذَّاتِ ذو حرصِ

ومن المقترحات الممكنة (مثل: الإمتاعِ/ مَا طابَ/ الشهَوات (إن كان البحر مجزوء الوافر لا الهزج)..) يتبين للطالب ترادف هذه الكلمات في الوزن العروضي، ويخرج بذلك من أسر الوزن الصرفي الذي يمنع الكثيرين من إتقان العروض.

ومن التطبيقات أيضا: التدرّب علىٰ زيادة بعض الألفاظ أو نقصها، ليستقيم الوزن دون إخلال بقواعد النحو، ولا تأثير في البلاغة. وعلىٰ المدرّس أن ينبّه الطالب علىٰ اجتناب الإكثار من الحشو الذي لا يقصد به غير إقامة الوزن، مثل زيادة «قد» أو «القد» أو «طُرًّا» لغير مسوّغ معتبر.

ندرة القراءات الأدبية:

ولا تستقيم قواعد اللغة في أذهان الطلبة إلا بالقراءة الكثيرة في كتب الأدب، تحت إشراف المدرّس، وبإرشاد منه إلىٰ النافع منها.

والمقصود بالأدب النافع هنا أحد شيئين:

- الأدب القديم في العصور الزاهية، قبل أن يتسرب إلىٰ الأدب التكلفُ والصناعة، ومراعاة المهارات اللفظية.
- الأدب الحديث السالم من التعبير الأعجمي، والمناهج الأدبية الحداثية.

وسيأتي -في موضعه إن شاء الله تعالىٰ- بيان الكتب الأدبية التي ينبغي الحرص علىٰ قراءتها أو دراستها.

المبحث الثاني

التدريس الأكاديمي وتضخم المنهجية

استمر النظام التعليمي في الأمة الإسلامية علىٰ منهج واحد، بحسناته ونقائصه، وذلك في كافة العلوم الشرعية واللغوية. وهو ما شرحته في المبحث السابق.

وفي العصر الحديث، انتشر التعليم الأكاديمي الجامعي، وحرص القائمون عليه -منذ مراحل التأسيس- علىٰ إحداث قطيعة منهجية مع التعليم العتيق، واقتباس المناهج التعليمية الحديثة من الغرب.

إلا أن تطبيق هذه المناهج بحذافيرها علىٰ علوم اللغة العربية، أنتج إشكالات بيداغوجية كثيرة، أضيفت إلىٰ العيوب الذاتية لهذه المناهج التعليمية، وإلىٰ تغييب ما في المناهج العتيقة من الفضائل التي سبق بيان بعضها. فاجتمعت هذه الأنواع الثلاثة من الخلل، لتجعل من التعليم اللغوي في أغلب الجامعات في العالم العربي، يعاني من عيوب منهجية ضخمة، ويضرب بنصيب وافر في الأزمة اللغوية العامة.

وقبل ذكر العيوب، فإن من المناسب أن أذكر أن التعليم الجامعي العصري، قدّم للدرس اللغوي فوائد جمة، وفتح أمام طلبة العربية آفاقا واسعة من التجديد في أساليب التدريس، واعتماد المناهج الحديثة في البحث، وتقوية المضامين القديمة بالنظريات اللسانية الحديثة، وما أشبه ذلك من الأثر الإيجابي النافع، الذي لا سبيل إلىٰ إنكاره.

كما أن العيوب التي سأذكرها هنا ليست موجودة في الجامعات كلها، وإنما هي سمة ظاهرة للتعليم الجامعي، تستقل منها بعض الجامعات وتستكثر منها أخرىٰ!

ويمكنني أن أجعل هذه العيوب -كما سبق لي في المبحث السابق- مصنفة في محورين اثنين:

الأول: المضمون.

والثاني: أساليب التدريس.

* * *

- **إشكالات المضمون المدرّس:**

وهي إشكالات كثيرة مختلفة، يمكن اختصارها في ما يلي:

<u>المناهج.. المناهج!:</u>

والمقصود كثرة انشغال الأساتذة والطلبة بدراسة المناهج العلمية اللغوية علىٰ حساب المضمون اللغوي.

وبعبارة أخرىٰ: فأهل الجامعة يتحدثون عن اللغة أكثر مما يتعلمونها!

ولذلك تجد الطالب المتخرج من الجامعة يمكنه أن يحاضر بيسر عن الاختلافات بين المدارس النحوية، وعن نشأة علم البلاغة وتطوره، وعن طرق تطبيق مناهج اللسانيات الحديثة علىٰ اللغة العربية، وما أشبه ذلك؛ ولكنه يكون عاجزا أشد العجز عن استحضار أوليات علمي النحو والصرف، أو عن إعراب آية مشكلة أو بيت من الشواهد المشهورة، أو عن استخراج القواعد البلاغية من آية قرآنية، أو عن معاني مفردات لغوية من الغريب يتداولها أهل الأدب القديم، أو نحو ذلك.

ضمور المادة اللغوية:

فالبرامج الدراسية الجامعية تعاني من ضعف شديد في المادة العلمية اللغوية بالمقارنة مع العلوم الأخرىٰ؛ إذ يقضي الطالب وقتا طويلا، ويبذل جهدا كبيرا في علوم تكميلية، مثل اللسانيات وتقنيات التواصل ومناهج البحث وبعض اللغات الأخرىٰ، وذلك قبل التمكن من أسس علوم العربية.

الانقطاع عن الكتب:

والمقصود: اعتماد المذكرات المدرسية بدلا من الكتب. وهذا من مظاهر الانحطاط في الجامعة، التي نبه عليها كثير من أهل الفضل؛ وبيّنوا أن ربط الطلبة بالمذكرات المختصرة التي يكتبها الأستاذ لطلبته ليجتازوا بها الامتحان، بدلا من ربطهم

بالمؤلفات التي كتبت لأغراض علمية خالصة بعيدة عن جو الدراسة، يؤدي بالطلبة إلىٰ الوقوع في الضعف العلمي المستحكم، وعدم القدرة علىٰ التعامل مع النتاج العلمي خارج أسوار الجامعة.

ومن الطرق العلمية المفيدة، التي تكاد تكون غائبة عن أكثر جامعاتنا: تقرير قوائم كتب للقراءة والتوسع في المادة، تضاف إلىٰ الكتاب المقرر الذي يكون الأصل المعتمد في التدريس.

الانقطاع عن التراث:

في الجامعة يكثر أن تعتمد الكتب الحديثة بدلا من الأصول التراثية الرصينة.

وهكذا يُعتنىٰ -عندما تقرر الكتب علىٰ الطلبة- بكتب المعاصرين تحت ذريعة اليسر وسهولة الأسلوب. ونتيجة هذا الاختيار: عدم تمرس الطالب الجامعي بالأساليب التراثية، وعدم قدرته علىٰ التعامل مع كتب اللغة القديمة. ويظهر ذلك جليا عند التصدي لتحقيق المخطوطات، أو عند خوض غمار الترجيح العلمي المحتاج إلىٰ فهم أقوال المختلفين فهما متقنا.

- **إشكالات أساليب التدريس:**

وإلىٰ جانب ما سبق ذكره من الخلل في المضمون، هنالك خلل آخر لا يقل عنه سوءا في طرق التدريس.

ومما يمكن رصده في هذا المجال:

فصل العربية عن الشريعة:

ومن المعلوم أن اللغة العربية معدودة ضمن العلوم الشرعية، لدورها العظيم في فهم نصوص الوحيين، وتصحيح الاستنباط العقدي والفقهي منهما.

فالأصل إذن أن تدرّس اللغة العربية تحت مظلة دينية شاملة، تحتويها مع العلوم الشرعية الأخرىٰ. وعلىٰ هذا كان الأمر في تاريخ الأمة العلمي دون استثناء.

ولكن الحال بعكس ذلك في أغلب جامعاتنا!

ونتيجة هذا الانفصام، استئثار بعض المخالفين للدين بالتدريس اللغوي، مما يمكنهم من تقرير أصول غير شرعية يبثونها في أثناء الدراسات اللغوية، ومن تخريج طلبة منقطعين عن التصور الإسلامي في اللغة والأدب.

غياب التدرج العلمي:

وهذا شيء مشاهد مجرب في كثير من الجامعات عندنا. وملخصه: الانتقال السريع من مبادئ العلم إلىٰ غاياته، مع التقصير الشديد في إتقان تلك المبادئ.

وهنالك أسباب كثيرة وراء هذا الخلل، منها: كثافة المواد الواجب إنهاؤها في المسار التعليمي، وكثرة التوقفات الدراسية لأسباب مختلفة مما يمنع إتقان المادة في وقتها المحدد، والحرص علىٰ أن يصل الطالب في نهاية مساره الجامعي إلىٰ الكتب المفصلة

المخصصة للمنتهين في العلم، وغير ذلك.

والنتيجة الحتمية لهذا الأمر: أن الطالب يعرف نتفا متفرقة من مقاصد العلم، قبل التمكن من أصوله؛ ويؤدي به ذلك إلىٰ الشعور الوهمي بإتقان العلم والتخصص فيه، والحال بخلاف ذلك في الغالب.

إن طبيعة هذه المناهج الدراسية التي تركز علىٰ المقاصد الكلية للعلم، وعنواناته العريضة قبل التمكن من الأدوات والأصول الابتدائية، تؤدي بالطالب إلىٰ نوع تكبر واستعلاء، وجرأة علىٰ خوض عويصات العلم قبل التأهل الكافي. ومما يقوي هذا المعنىٰ: تدريب الطلبة علىٰ تقديس الشهادة الأكاديمية وتعظيم شأنها علىٰ حساب إكبار شأن العلم من حيث هو.

قلة الحفظ:

يقلّ في المناهج الأكاديمية الاعتناءُ بالحفظ، سواء للمتون والمنظومات العلمية، أو للمصطلحات والقواعد من حيث هي.

وهذا عيب كبير عموما، ويتأكد الخلل في علوم اللغة التي مبناها علىٰ النقل والرواية.

ونتيجة هذا النقص: نسيان الطالب لأكثر المعلومات التي يتلقاها خلال دراسته الجامعية عند مغادرته لأسوارها. وهنا يتفوق الطلبة التقليديون لاعتمادهم الكبير علىٰ الحفظ في طلب العلم الشرعي، لكن لا يعفيهم ذلك من أصناف أخرىٰ من النقص سبق بيانها.

الشروع في الكتب دون ختمها:

إن الالتزام الصارم بالبرامج ومددها الزمنية، يؤدي -في كثير من الأحيان- إلىٰ عدم ختم الكتب والمتون المقررة. وهذا نقص شديد في الدراسة الجامعية، إذ لا يستطيع الطالب الجامعي أن يدّعي إتقانه لكتاب نحوي أو صرفي أو بلاغي أو لغوي كامل، إلا أن يكون ذلك بجهد شخصي خارج الجامعة.

ويكثر في المتخرجين من الجامعات اللغوية، ألا يكونوا قد طالعوا الكتب المشهورة المتداولة في علوم العربية، فضلا عن الكتب النادرة.

فاقد الشيء لا يعطيه:

بسبب عدم الانفتاح علىٰ الكفاءات العلمية خارج الجامعة، لعدم توفرها علىٰ الشهادة الأكاديمية اللازمة، فإن هنالك نقصا في درجة التمكن العلمي عند بعض الأساتذة الجامعيين.

فهي حلقة مفرغة تدور الجامعة فيها، ولا يمكن التخلص منها إلا بفتح الباب أمام غير الأكاديميين لإعادة تأهيل الطلبة والأساتذة معا.

دعوات التجديد:

تكثر في الجامعة الدعوات إلىٰ التجديد في علوم اللغة، وكثير منها رأي فطير، لم ترسخ جذوره، ولم يستقم عوده، ولم تبرز ثمراته.

ففي علم النحو: الدعوة إلىٰ حذف «نظرية العامل» تبعا لنقد ابن مضاء المعروف، وإلىٰ إعادة تحرير العلل النحوية وأصول القياس وغير ذلك.

وفي علم البلاغة: الدعوة إلىٰ حذف كثير من المباحث البلاغية، وإعادة النظر في أخرىٰ.

وفي علم العروض: الدعوة إلىٰ إلغاء التفاعيل الخليلية، وحذف بحور وإضافة أخرىٰ.

وفي علم الإملاء: الدعوة إلىٰ تغيير قواعد الإملاء لتيسير الخط العربي(١).

ولا شك أن مناقشة هذه الدعوات التجديدية مقبولة بين أهل التمكن والاختصاص، مع مراعاة احترام ما بناه العلماء السابقون، واقتراح بناء علمي متكامل يقوم مقامه.

ولكن المشكلة حين تعرض هذه الدعوات في خطوطها العريضة علىٰ الطلبة المبتدئين، فيفضي بهم ذلك إلىٰ احتقار

---

(١) وتعجبني غضبة الرافعي ﷺ علىٰ من يقول في عصره: (لك مذهبك ولي مذهبي، ولك لغتك ولي لغتي)، فيقول لهم (تحت راية القرآن: ١٣-١٤): (فمتىٰ كنت يا فتىٰ صاحب اللغة وواضعها ومنزل أصولها ومخرج فروعها وضابط قواعدها ومطلق شواذها؟ ومن سلم لك بهذا حتىٰ يسلم لك حق التصرف «كما يتصرف المالك في ملكه»، وحتىٰ يكون لك من هذا حق الإيجاد، ومن الإيجاد ما تسميه أنت مذهبك ولغتك؟..).

البناءات العلمية التراثية، وكثرة اللهَج بنقدها وانتقاصها، مع العجز عن تصور البديل الذي يقترح دعاة التجديد تصورا صحيحا.

فيضيع الطالب المسكين بين علم مهدوم، وبديل معدوم!

الباب الثاني

خطة عملية لتكوين الملكة اللغوية

لست أزعم في هذا الباب أنني سأقترح عليك شيئا ساحرا، يجعلك تنتقل في طرفة عين من جاهل بالعربية، مقصّر في تعلمها، يسير علىٰ ما يوافق حال هذا العصر الذي يغالب الضعف اللغوي أهلَه، إلىٰ عربي قح، نقي الذوق، طاهر اللفظ من أدران العجمة!

ولكنني أزعم أنني سأرشدك إلىٰ طريق إن أنت سلكته، وقد حملت من الزاد ما يكفيك، وأعددت للسفر الطويل عدّته، ووطنت نفسك علىٰ مكابدة عناء الغربة وشظف الوحدة في تلك الفيافي الموحشة؛ لم تلبث أن تشرف علىٰ روضة مريعة غناء، يغبطك عليها من استكانوا إلىٰ الإقامة في خفض العيش، واستوحشوا من الترحال وما فيه من المصاعب. وبعد أن تبلغ غايتك، ويأتوا إليك متعجبين منبهرين فقل لهم: «الصيفَ ضيعتِ اللبن»! وشاركني حينئذ شيئا من نشوة الظفَر، وسعادة بلوغ الآمال!

ولست أدّعي أيضا أن هذا السفر متاح لكل أحد، بل دون ذلك أمران لا بد من تهيّئهما:

الأول: شيء من الموهبة الفطرية، والاستعداد الأصلي، الذي يعين علىٰ نشوء الملكة واكتمالها. ومن حاول شيئا لا يستطيعه كان حريّا بقول الشاعر:

إذا لـم تـسـتـطـع شـيـئـا فـدعـه
وجـاوزه إلـىٰ مـا تـسـتـطـيـع

وليتأمل قول بشر بن المعتمر:

«فإن أنت تكلفتهما (أي قرض الشعر الموزون واختيار الكلام المنثور) ولم تكن حاذقا مطبوعا ولا مُحكما لشأنك، بصيرا بما عليك وما لك، عابك من أنت أقل عيبا منه، ورأىٰ من هو دونك أنه فوقك (. .) فإن تمنّع عليك ذلك من غير حادث شغل عرض، ومن غير طول إهمال، فالمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة إلىٰ أشهىٰ الصناعات إليك، وأخفّها عليك. .»[1].

إلا أن هذا التأهل الفطري، يكون مستورا مختفيا، كما تكون اللآلئ محتجبة في أصدافها في قعر البحر، لا ينتفع بها إلا من بذل الجهد في استخراجها.

وكثير من الناس لا يحفلون بمواهبهم المختبئة في صدورهم، حتىٰ تصدأ ويتسلط عليها النسيان والغفلة. وينصح الجاحظ أمثال هؤلاء بقوله:

---

(١) البيان والتبيين: ١/١٣٨.

«ولا تُهمل طبيعتك فيستوليَ الإهمالُ علىٰ قوة القريحة، ويستبدَّ بها سوء العادة»[1].

ولذلك، فلا يمكنك أن تزعم أنك لست من أهل هذا الشأن، إلا بعد أن تبذل جهدا كبيرا، وتقضي وقتا طويلا، في مكابدة ما سأنثره بين يديك من وسائل الدربة.

علىٰ أنني أحب أن أطمئنك أن من ليست له موهبة مطلقا، قد لا يصل إلىٰ أعلىٰ المراتب في هذا المجال، لكنه لن يعدم -أثناء دراسته- خيرا كثيرا يحصّله وأجرا عظيما يرجوه!

والأمر الثاني: ما أشرت له آنفا من أن الملَكة اللغوية لا تنال إلا بجهد وعمل!

ومن آفات العصر: استسهال العلم!

يسمع الطالب من بعض دعاة التنمية البشرية، أن من أراد الشيء ناله، وأن الإرادة تكفي لصنع المعجزات، وأنه لا فرق في الذكاء بين الناس، وأن أي شخص يمكنه أن يحفظ القرآن في أيام معدودة، إلىٰ غير ذلك من الأفكار المبثوثة في مجتمعاتنا؛ فتجده لأجل ذلك يتخيل أنه بقراءة يسيرة، وجهد قليل، سيحصّل مبتغاه، دون مشقة ولا ألم!

وقد كتب العقاد هذا النقد الجميل للمناهج «البيداغوجية» الحديثة، التي تركز علىٰ التشويق والترغيب مع الإعراض عن بيان

---

(١) البيان والتبيين: ١/ ٢٠٠.

ضرورة المشقة في التعلم. وفي ضمن كلامه: مقارنة بين طلبة المدارس الحديثة والطلبة الأزهريين - أيام كان الأزهر يسير علىٰ المناهج العلمية القديمة:

(.. ولكن الواقع أن البداجوجيا هي التي خلقت هذا الوهم وألهجت المعلمين والمتعلمين ببدعة التشويق والترغيب حتىٰ فشا الغرور في بعض الناشئة، ووقر في أخلادهم أن كل ما لا يفهمونه بغير مشقة فهو غير مفهوم. ومن هنا لا نستبعد أن يحور زمام الفكر غدا إلىٰ أيدي الأزهريين والذين نشأوا علىٰ الطرائق الأزهرية؛ لأنهم درجوا علىٰ أن العلم صعوبة ومشقة وليس بالمائدة الشهية المهيأة للتناول السهل اليسير؛ فندر أن ترىٰ أزهريا يستعصي عليه فهم معنىٰ من المعاني إلا عالجه وثابر علىٰ فض مغلقه وحل عقدته. وندر أن ترىٰ طالبا من الذين أفسدتهم البداجوجيا يستعصي عليه فهم شيء إلا ترك البحث فيه واتهم المدرس أو اتهم الكتاب.

إن شر ما ابتليت به الثقافة أن يقال إنها لذة ليس إلا، وأن ينسىٰ مع هذا أن اللذة لا تكون إلا باستعداد، وأن الاستعداد لا يتم بغير الصبر والمراس، وصدق أبو تمام حيث قال:

بصرت بالراحة الكبرىٰ فلم ترها

تنال إلا علىٰ جسر من التعب)[1].

وقديما قال يحيىٰ بن أبي كثير: (لا ينال العلم براحة الجسم).

---

(١) ساعات بين الكتب: ٥٨٤.

فوطّن نفسك إن أردت تحصيل الملكة اللغوية علىٰ كثير من الكد والجهد، ومعالجة المشقات والصّعاب.

وقد فشا في أوهام كثير من الناس أن تحصيل العربية مرادف لتعلم بعض قواعد النحو. وليس الأمر كذلك فالزاد العلمي لا يكفي لتحصيل ملكة اللغة.

وقد قال ابن الأثير قديما: «فن الفصاحة والبلاغة غير فن النحو والإعراب»[١].

والمشاهد الذي لا ريب فيه أن كثيرا من المتمكنين من قواعد النحو والصرف، لا يتقنون التصرف في اللغة حديثا أو كتابة. ولهذا المعنىٰ شواهد في القديم والحديث.

فقد جرىٰ ذكر الشعر بحضرة أبي علي الفارسي (وهو الإمام المعظّم في صنعة النحو والصرف) فقال: «إني أغبطكم علىٰ قول الشعر، فإن خاطري لا يوافقني علىٰ قوله مع تحقيقي العلوم التي هي من موادّه»، فقال له رجل: فما قلت قط شيئا منه؟ قال: «ما أعلم أن لي شعرًا إلا ثلاثة أبيات..»[٢].

ومثل قول المبرّد: «ليس أحد في زماني إلا وهو يسألني عن مشكل من معاني القرآن، أو مشكل من معاني الحديث النبوي،

---

(١) المثل السائر: ٢/٨٧. قاله تعليقا علىٰ شرح ابن جنّي -إمام النحو- لبيت غزلي لأبي الطيب المتنبي.

(٢) مرآة الجنان لليافعي: ٢/٣٠٥-٣٠٦.

أو غير ذلك من مشكلات علم العربيّة، فأنا إمام الناس في زماني هذا، وإذا عرضت لي حاجة إلىٰ بعض إخواني، وأردت أن أكتب إليه شيئا في أمرها أحجم عن ذلك، لأني أرتب المعنىٰ، ثم أحاول أن أصوغه بألفاظ مرضية، فلا أستطيع ذلك»[1].

ويلخص ابن خلدون ذلك بقوله: «وكذلك تجد كثيرًا من جهابذة النحاة، والمهرة في صناعة العربية المحيطين علمًا بتلك القوانين، إذا سئل في كتابة سطرين إلىٰ أخيه أو في مودته أو شكوىٰ ظلامة أو قصد من قصوده، أخطأ فيها الصواب وأكثر من اللحن، ولم يجد تأليف الكلام لذلك، والعبارة عن المقصود فيه علىٰ أساليب اللسان العربي. وكذا نجد كثيرًا ممن يحسن هذه الملكة ويجيد الفنين من المنظوم والمنثور، وهو لا يحسن إعراب الفاعل من المفعول، ولا المرفوع من المجرور، ولا شيئًا من قوانين صناعة العربية»[2].

ولأجل هذا كان من اللازم الجمع بين المهارتين:

- المعرفة العلمية النظرية،
- والتدريب العملي التطبيقي[3].

وهذا مضمون الفصول الآتية - إن شاء الله.

---

(١) المثل السائر: ١/ ٩٨.

(٢) مقدمة ابن خلدون: ٢/ ٣٨٥.

(٣) مهارات اللغة العربية لعبد الله علي مصطفىٰ: ٤٣.

الفصل الأول

الزاد العلمي

سأذكر في هذا الفصل خمسة علوم هي: النحو والصرف والبلاغة والعروض (ومعه القوافي) والإملاء.

وفي كل علم، سأذكر الحد الأدنىٰ الذي لا بد من تحصيله لتحقيق الملكة اللغوية، وأذكر معه ما يدرسه من يريد التوسع. كما سأشير إلىٰ بعض المباحث الطفيلية التي ينبغي اجتنابها إن أمكن.

وليعلم القارئ أن مناهج طلب العلم المقترحة علىٰ الطلبة كثيرة جدا، وبعضها ناشئ من نظر فطير، أو مبني علىٰ التجميع الفوضوي لآراء العلماء في الكتب والمتون. كما أن المناهج الملائمة تختلف باختلاف الأشخاص، فما يصلح لفلان من الناس قد لا يصلح لغيره، والمنهج الصحيح هو ما كان ملائما لمواهب الطالب ومؤهلاته ودرجة تفرغه.

وما أذكره هنا هو خلاصة خبرتي لأعوام طويلة في تعلّم هذه العلوم، ثم في تعليمها. كما أنني راعيت فيه التنوع بين المناهج المتداولة -ما أمكن- لملاءمة أحوال الطلبة المختلفة.

المبحث الأول

في النحو والصرف

النحو والصرف كالشقيقين المتباينين في الطباع الباطنة والأقوال الظاهرة، لكنهما مجتمعان أبدا لا يتصور افتراقهما!

فهذا العلمان يبحثان في مجالين مختلفين الاختلافَ كله، إذ يعتني علم النحو بأحوال أواخر الكلمات من إعراب أو بناء، حال التركيب. أما علم الصرف فمجاله النظر في بنية الكلمة المفردة، بقطع النظر عن تركيبها مع كلمات أخرىٰ.

فاختلفا إذن في موضع النظر، إذ هو آخر الكلمة في النحو، وبنية الكلمة كلها في الصرف.

واختلفا في حال النظر، فالنحو ينظر إلىٰ الكلمة مركبة، والصرف ينظر إليها من حيث هي، مطلقة عن الإفراد أو التركيب.

ولكن مع ذلك فهما مجتمعان منذ أن كانا، لا يكاد يقوم أحدهما دون الآخر، ولا يكاد يستقل أحدهما عن قرينه في منهج تدريسي.

وهكذا نجد في الكتب الأصلية القديمة ككتاب سيبويه:

العِلمين معا، ونجد الاجتماع نفسه في متن الخُلاصة المشهور، الذي عليه اعتماد المتأخرين جميعهم في دراسة هذين العلمين، كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

ولأجل ذلك، فإن المنهج المقترح سيكون واحدا يشمل العلمين كليهما.

وليعلم ابتداءً أن علمي النحو والصرف هما أساس العربية، لا قيام لها إلا بهما، ولا يتصور خلو طالب اللغة والأدب[1] من معرفتهما، ولو أن تكون تلك المعرفة في أدنىٰ صورها. وقد كان النحو يسمىٰ في بعض الأزمنة السابقة: علم العربية، تنبيها علىٰ كونه اللب والأساس.

وقد اشتكىٰ المتقدمون من اللحن، وبدء فشوّه في الأمة من كثرة مخالطة الأعاجم، وانبروا للتصنيف في النحو والصرف لا يحدوهم إلىٰ ذلك إلا الرغبة في حفظ العربية من التحريف، وصيانة الألسنة من اللحن. كما عمدوا إلىٰ تتبع كلام العرب، وجمع المادة اللغوية الثرية المتضمنة فيه، ووضع القواعد الجامعة،

---

(١) لست أنسىٰ يوم جاء أحد شداة الأدب بقصيدة له إلىٰ شيخنا مصطفىٰ النجار ﷺ يطلب منه الرأي والتقويم، فسأله قبل أن ينظر فيها: «أدرست ألفية ابن مالك؟»، فحين أجابه بالنفي، رفض أن ينظر في قصيدته. والمقصود بالقصة -علىٰ ما فيها من مبالغة في الاعتداد بالنحو قد ينكرها القارئ- إنما هو بيان التلازم بين معرفة النحو والصرف وإتقان صنعة الأدب. كذا كان الأمر، في تاريخ الأمة كلها، قبل أن يلج المتطفلون إلىٰ ميدان الأدب العربي، فيحدثوا القطيعة الكارثية بين الإبداع الأدبي والتمكن اللغوي.

والأصول الضابطة، وتبيين العلل والأسرار. واعتنوا بتأديب الصبيان علىٰ فصيح القول، وبتأنيب اللاحن علىٰ لحنه، وعده من خوارم مروءته.

فما ذهبت جهودهم هباء، بل أثمرت بناء علميا باذخا، حمىٰ العربية من العوادي الخطيرة التي كانت تتربص بها.

وأما في زماننا فقد انتشر اللحن الفاحش، واستشرت اللغة المهجنة، وتقدمت العامية الناخرة في جسد الفصحىٰ إلىٰ مواقع ما كان دعاتها بالأمس يحلمون بمثلها، واشتدت المؤثرات اللغوية المهيمنة القادمة من خارج الأمة وداخلها..

ثم مع ذلك كله:. ضعف شديد في همة تعلم العربية، وجراءة عجيبة علىٰ علوم الأولين، وتسارع إلىٰ تنقص جهودهم ومحاولة إسقاط علم النحو (والصرفُ قرينه في هذا أيضا)، لأنه صعب كثير التعقيد تارة، أو لأنه مشحون بالزوائد الطفيلية تارة، أو لأنه مبني علىٰ نظريات العامل وعلىٰ العلل القياسية تارات أخرىٰ..

والنتيجة مزيدٌ من العجمة، وتراكمٌ للبعد عن اللسان الفصيح، في مقابل انتشار اللهجات المحلية، واللغات الأجنبية الزاحفة.

وهذا أوان بيان المنهج المقترح في علمي النحو والصرف.

والله الموفق.

المنطلق:

المبتدئ في هذا الباب له صورتان:

الأولىٰ: صورة الأعجمي المنتسب إلىٰ موطن لا مكان للعربية

فيه، ثم هو يريد الدخول في زمرة المتعربين، فيحتاج إلىٰ هذين العلمين مع حصيلة من الزاد العلمي واللغوي والأدبي تغسله من درن العجمة. وتلتحق بهذه الصورة أخرىٰ تشبهها، وهي صورة العربي بالنسب، الذي نشأ علىٰ العامية أو علىٰ إحدىٰ اللغات الأجنبية، حتىٰ استعجم لسانه، فهو عربي نسبا أعجمي حكما.

والثانية: صورة الطالب المبتدئ الذي لا يعسر عليه أن يتحدث العربية أو يفهم من يتحدث بها، ولكنه يحتاج إلىٰ معرفة قواعد النحو والصرف التي قد يكون درسها من قبل ثم أُنسيها.

أما الأول، فعليه أن يجعل من وكده دراسة كتب القواعد المدرسية، ليتأهل إلىٰ ما يساوي أصحاب الحالة الثانية.

ومن أنفع الكتب المدرسية في هذا الباب: كتاب «النحو الواضح»[1] لمؤلفَيه: علي الجارم ومصطفىٰ أمين. وهو كتاب يعتمد منهج استنباط القاعدة من الجمل المنتقاة بإحكام، مع التدرج من مبادئ اللغة، إلىٰ ما هو أشد تعقيدا وأكثر تفصيلا. ويزدان الكتاب بأسئلة وتمرينات تعين الطالب علىٰ ضبط القواعد وإحسان استعمالها.

---

١) ومن القواعد المطردة لدي عن تجربة: أن الكتب المدرسية التي أبدعتها أقلام المصريين في عصر النهضة، من أنفع ما علىٰ طالب العلم أن يعتني بتحصيله وقراءته، وذلك في العلوم المختلفة. ويحضرني منها: «المنتخب من أدب العرب»، و«الوسيط في الأدب العربي وتاريخه» و«البلاغة الواضحة» وغيرها، مما وجدته في مكتبة والدي -حفظه الله- وابتنيت ثقافتي الأولىٰ عليه.

ويمكن اعتماد غيره من الكتب المدرسية المقررة في المدارس الابتدائية المختلفة بالعالم العربي، لكن في الأزمنة التي سبقت زمن تهدم المناهج العلمية بمعاول التجديد والتيسير.

وتحضرني هنا سلسلة كتب قوية الأثر، طيبة في انتقاء النصوص واستخراج القواعد منها، هي سلسلة «اقرأ» لصاحبها أحمد بوكماخ، وقد كانت مقرّرة علىٰ المدارس الابتدائية بالمغرب، منذ عقود قليلة.

وإذا مرّ الطالب علىٰ هذه الكتب صار متأهلا للالتحاق بأبناء الطائفة الثانية في مناهجهم التي سأذكرها فيما يأتي إن شاء الله.

والمنطلق فيها هو متن الأجرومية في النحو، لصاحبه محمد بن آجروم الصنهاجي.

والمقترح أن يدرسه الطالب بشرح الشيخ محيي الدين عبد الحميد، الموسوم بـ«التحفة السنية شرح المقدمة الأجرومية»، ولا يتعب نفسه باعتماد شرح آخر معه. لكن ذلك مشروط بإتقان «التحفة السنية» كاملا.

وإن كان من أهل الحافظة الجيدة فليحفظ المتن، أو نظما له[1]. وإلا فليقتصر علىٰ حفظ معانيه، دون أن يتعنىٰ باستحضار ألفاظه.

---

(١) نظمه كثير من أهل العلم. والذي أختاره أن يعتني الطالب بنظم عبيد ربه الشنقيطي، لصغر حجمه وسلامته من الحشو، مع الإحاطة بالمقصود. ولي عليه شرح صوتي مختصر، أرجو أن يكفي الطالب في حل ألفاظ النظم.

ولا يدرس في الصرف شيئًا في هذه المرحلة الأولىٰ.

علىٰ الطريق

في هذه المرحلة، يشرع الطالب في التعرف إلىٰ قواعد هذين الفنين واصطلاحاتهما، بعد أن أزال صدأ الجهل عن ذهنه بمَبارِد المرحلة الأولىٰ التي أسلفت بيانها.

ومدار هذه المرتبة في النحو علىٰ كتابين اثنين، يكمل أحدهما الآخر، هما لمؤلف واحد، بعناية محقق واحد، عمله إلىٰ التحشية والتعليق أقرب منه إلىٰ التحقيق، مع أنه آخذ من التحقيق بأفضل نصيب.

فالكتاب الأول، هو: «شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب»؛ والثاني هو: «قطر الندىٰ وبلّ الصدىٰ».

وأما المؤلف فهو: جمال الدين ابن هشام. وأما المحقق فهو: محمد محيي الدين عبد الحميد[1].

فليعمد الطالب إلىٰ الكتابين، وليلخص مقاصدهما في كراسة واحدة، وليعتن أشد ما يكون الاعتناء بتحرير المسائل النحوية المشكلة من كلام صاحب الحاشية. وليقرأ شرحه علىٰ الشواهد

---

(١) ألينَ لهذين علمُ النحو، فصارت معضلاته في كلامهما من الواضحات. وليضف إليهما ثالث له بهما شبهٌ -علىٰ تأثر عنده بصناعة المنطق يثقل بسببها بعض كلامه- هو الشيخ: خالد الأزهري، رحمة الله عليهم أجمعين. فليحرص الطالب علىٰ كتب هؤلاء، وليجعل النظر فيها من هجّيراه!

النحوية مع إعرابها قراءة تدبر وتمحيص، ثم ليُعِد الإعراب من حفظه وليقارن ذلك بما في كلام الشيخ ﷺ.

وليعتن بحفظ الشواهد، فإنها للنحو كأدلة الفقه للأحكام الفرعية. وحفظُ الشواهد -في رأيي- أولىٰ بالاهتمام من حفظ المتن، ومن أدركهما معًا حاز المكرمتين.

وليحذر الطالب من استثقال هذه الشواهد، والتعجب من غرابتها. فإن هذا مسلك الكسالىٰ!

فإن أضاف إلىٰ ذلك ذمها والحط علىٰ النحاة بسببها، كان سائرا علىٰ مسلك المتعالمين!

وأما في الصرف، فيقرأ في هذه المرحلة بتمعن كتاب «شذا العرف في فن الصرف» للشيخ أحمد الحملاوي، ويلخص أهم مقاصده في كراسة صغيرة.

ثم يقرأ للتوسع والتطبيق كتاب: «التطبيق الصرفي» لعبده الراجحي، ويعتني بالإجابة علىٰ التمرينات جميعها. وليحرص أشد الحرص علىٰ أبواب تصريف الأفعال المسندة إلىٰ الضمائر، فإنه مما تهمله كثير من كتب الصرف، مع أنه من أعظم غايات إتقان هذا الفن، والغلطُ فيه -مع كونه شائعا في عصرنا- قبيح مستشنع[1].

(١) وكاد الفعل المعتل بأنواعه أن يختص بهذه الأغلاط الشائعة عند العصريين. مع أن إتقانه من أيسر ما يكون، لو أسعفت الهمة!

وإذا ختم هذه المرحلة فليقرأ كتاب «جامع الدروس العربية» لمصطفىٰ الغلاييني، فإنه كتاب مدرسي طيب، يراجع الطالب فيه ما حصل من قبل في علمي النحو والصرف.

مراحل الوصول

وهذه المرحلة خاصة بأهل التمكن والرسوخ، ولا يلزم كلَّ راغب في تكوين ملكته اللغوية أن يطرقها بتفصيلاتها، ولكنه لا يستغني عن معرفة خطوطها العريضة.

وأساس هذه المرحلة المتنُ الشهير، الموسوم بالـ«خُلاصة»، والمعروف بـ«ألفية ابن مالك في النحو والصرف»[1].

ومنهج التعامل مع الألفية: أن يبدأ بحفظها مع شرح ميسر مختصر يكفي الطالب في حل ألفاظها، ومعرفة معانيها الإجمالية دون تفصيل ولا ذكر خلاف. والمرشح لذلك كتاب «الشرح الميسر» للشيخ عبد العزيز الحربي.

ثم يعيد دراسة الألفية، مرة ثانية لترسيخ حفظها، والتشبع بمعانيها، مع زيادات وخلافيات. وليعتمد في هذه الدراسة الثانية علىٰ الشروح الآتية:

---

(١) يسأل بعض الطلبة عن زيادات المختار بن بونا الشنقيطي علىٰ الألفية، مما نظمه من كتاب التسهيل لابن مالك، وهي الزيادات الموسومة بـ«الاحمرار». وجوابي: أنها من المتون الشنقيطية الخالصة، التي لا تكاد تعرف خارج بلاد شنقيط. فالمختار لمن لم يكن من أهل تلك البلاد ألا يلتفت إليها، وإلا أوقع نفسه في العنت ومخالفة المألوف.

• «دليل السالك شرح ألفية ابن مالك» لعبد الله الفوزان. ويميزه إشراق الأسلوب، وحسن الترتيب، والاعتناء بالتمثيل الملائم.

• شرح العلامة ابن عقيل، بتعليقات الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد.

• «أوضح المسالك شرح ألفية ابن مالك» للعلامة ابن هشام، بتعليقات الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد. وليصنع مع هذا الكتاب والذي قبله مثل الذي صنع في المرحلة السابقة مع كتابَي «شرح شذور الذهب» و«شرح قطر الندىٰ».

• شرح الأشموني. ولا يرجع إلىٰ حاشية الصبان إلا عند الحاجة، من إبهام معنىٰ، أو إغلاق عبارة، أو احتياج لمزيد تفصيل وبيان.

وليجمع فوائد هذه الشروح في كراسة، تصبح مستنده في تحرير مسائل النحو والصرف جميعها.

وبعد أن يكمل هذه المرحلة، يجد الطالب حاجة إلىٰ ضبط قواعد صرف الأفعال، بعد أن ضبط صرف الأسماء من الألفية. فلا عليه أن يمر علىٰ لامية الأفعال مع شرح بحرق الحضرمي عليها، مرورا سريعا. وفي الكتب الدراسية المقررة هنا وفي المرحلة السابقة ما يغنيه عن إطالة النظر في هذا المتن[1].

---

(١) سبق لي بعض الكلام عن رأيي في هذا المتن، في باب سابق، فليراجع هناك.

ومن هذه الكتب النافعة:

- «المغني في تصريف الأفعال» لمحمد عبد الخالق عضيمة.
- «تصريف الأسماء والأفعال» لفخر الدين قباوة.

ولا تكتمل الفائدة المرجوة في هذه المرحلة إلا بدراسة كتاب «قواعد الإعراب» لابن هشام، ومن النافع أن يحفظ معه نظم الزواوي عليه، فإنه يساعده علىٰ استحضار كثير من القواعد الإعرابية التي لا غنىٰ لطالب النحو عنها.

وليطالع بعد ذلك كتاب «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب» لابن هشام أيضا، لتكمل الفائدة.

التوسع:

والمقصود بهذه الفقرة التنبيه علىٰ مجموعة من الكتب الجامعة في علمي النحو والصرف أو في أحدهما، يحسن بطالب الملكة اللغوية أن يجعلها في مكتبته، قريبا من متناول يده، يطالع منها ما شاء الله أن يطالع[1]، أو -في أقل الأحوال- يرجع إليها للبحث وتحرير المسائل المستعصية.

والكتب المقصودة هي:

- «النحو الوافي» لعباس حسن، وهو كتاب جامع مرتب علىٰ

---

(١) من تجربتي الذاتية: أنني أجعل -متىٰ تيسر لي ذلك- مِن بعض هذه الكتب وِردا يوميا من القراءة، فيحصل لي بسبب ذلك فائدة لغوية عظيمة، ومتعة ذهنية فائقة، لا تقلّان عما أجده منهما في قراءة كتب الأدب القديم.

ترتيب ألفية ابن مالك، بأسلوب عصري سلس، مع مراعاة منهج استنباط القواعد من الأمثلة المعروضة في بداية كل درس -كما سبق ذكر نظيره عن كتاب «النحو الواضح»-، ومع البدء بعرض المسائل باختصار، ثم تخصيص مبحث للتفصيل والزيادات، ينتفع بها مريدها. وللمؤلف اختياراتٌ عصرية يخالف فيها -مثل مذهبه في الشذوذ والقياس- ولكن الكتاب نافع جدا.

• «التصريح علىٰ التوضيح» للشيخ خالد الأزهري، وهو شرح علىٰ كتاب «أوضح المسالك» لابن هشام. وفيه لطائف حسنة.

• «المقاصد الشافية» للإمام الشاطبي، وهو من نفائس العلم عموما، وفيه تحقيقات حسنة، وتفصيلات كثيرة.

• شرح المفصل لابن يعيش، والمفصل متن نثري للزمخشري.

• شرح الرضي الاستراباذي علىٰ الشافية في علم الصرف والخط، وهو عمدة في بابه. (وهو أولىٰ بالعناية من شرحه علىٰ الكافية في النحو. وكلا المتنين لابن الحاجب).

• الممتع في التصريف لابن عصفور.

• الخصائص لابن جني.

• الإنصاف لأبي البركات الأنباري (في الخلاف النحوي).

ومن المناسب أن يجعل الطالب في جميع قراءاته النحوية ألفيةَ ابن مالك علىٰ ذُكر منه، يعدّها الأساس المحفوظ لديه، الذي يبني معرفته النحوية عليه.

المبحث الثاني

في البلاغة

هذا علم قرآني في أصله، فإنه نشأ في محاضن إعجاز القرآن، وكان الحادي لعلماء اللغة أن يطرقوه، ويفجروا ينابيعه: الرغبة في إظهار بلاغة الكتاب العزيز، وبلوغه أعلىٰ درجات الفصاحة، المخرسة ألسنةَ المعارضين، والملقمة أفواهَ المنكرين أحجارا من الحجج والبراهين.

وقد ذكروا أن أول من تكلم في علم البيان: أبو عبيدة معمر بن المثنىٰ، وأن سبب ذلك أن بعضهم استشكل في مجلسٍ قولَه تعالىٰ: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥]، كيف يكون التشبيه بشيء لا يعرفه السامع؟ فأجاب أبو عبيدة بأن هذا من أساليب العرب المعروفة، واستدل بقول امرئ القيس:

أيقتُلني والمشرفيُّ مضاجعي
ومسنونة زرق كأنياب أغوالِ

ثم ألف كتابه: «مجاز القرآن».

فعلم البلاغة -في الأصل- دفاع عن القرآن، ووصف لأوجه

إعجازه[1]. ثم تطور إلىٰ سائر الكلام العربي، من شعر أو نثر، قديم أو حديث.

وهذا العلم يأتي -بفنونه الثلاثة- في المرتبة التالية لعلمي النحو والصرف. وذلك لأنه يعتني بتركيب الكلام علىٰ أحسن الوجوه وأفصحها، ولا يكون ذلك إلا بعد أن يكون الكلام سالما من مخالفة قواعد النحو، ومفرداتُه سالمة من مخالفة قواعد التصريف.

وهو ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام - أو قل: إلىٰ ثلاثة علوم:

الأول: البيان، ويراد به: إيراد المعنىٰ الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه. فتدخل فيه مباحث: التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية وما التحق بها.

والثاني: المعاني ويراد به: إيراد المعنىٰ بالصورة الموافقة لمقتضىٰ حال المخاطبين. ويشتمل علىٰ مباحث الخبر والإنشاء والإسناد والحصر والإيجاز والإطناب وما أشبه ذلك.

والثالث البديع ويراد به: طرق تحسين الكلام، باستعمال المحسنات اللفظية والمعنوية.

والأولان أولىٰ بالعناية من الثالث، لأن الفصاحة مقدمة علىٰ التزيين والتحسين، ولأن علم البديع تعلقت به أوضار الصناعة

(١) والاعتناء بهذا الفن يغني الطالب عن تلمس أوجه الإعجاز في ما لا يصح نسبته إلىٰ كتاب الله، وذلك مثل بعض أوجه الإعجاز العلمي المستكرهة.

اللفظية، حتىٰ خرج الكلام أو كاد عن طرائق العرب الفصحاء، والتحق برطانة العجم المستعربين، وحذلقة أهل الذكاء والمهارة في معاملة الألفاظ.

وعلىٰ العموم، فإن الطالب ينبغي أن يحذر من الغوص في كتابات المتأخرين في علم البلاغة، دون زاد من كتابات المتقدمين.

والأسباب كثيرة منها:

المؤثر الكلامي

والمقصود تأثير «علم الكلام» بما يحمله من المخالفات العقدية لما كان عليه سلف الأمة رضوان الله عليهم. ولذلك فقد قلتُ مرارا عند تدريس هذا العلم: إنه علم «ملغوم»، تكتنف الناظرَ فيه مزالقُ عقدية خطيرة، لا يتنبّه لها إلا حاذق في معرفة عقيدة أهل السنة. ويظهر هذا خصوصا في مباحث الحقيقة والمجاز والاستعارات وبعض مسائل الإسناد.

الزخرفة اللفظية

وهذا الذي سبقت الإشارة إليه، ويتجلىٰ في إكثار المتأخرين من المباحث اللفظية، خاصة في علم البديع.

ومن أمثلة المباحث العجيبة في هذا الفن: القلْب أو العكس اللّفظي، وهو أن يُقرأ الكلام من آخره إلىٰ أوّله كما يُقرأ من أوّله إلىٰ آخره، كما في قوله تعالىٰ: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾ و﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾.

ومثله التشريع وأنواع السجع والجناس ونحوها.

والتزام هذه المحسنات أو تكلفها ولو في المرة بعد المرّة، بعيد عن طرائق العرب الأقحاح في التعبير الفصيح. وإنما يحمد منها ما جاء عرَضا دون اعتساف.

الفقر في التمثيل

يتداول المؤلفون في علم البلاغة أمثلة وشواهد، وضعها الأولون وقلدهم فيها من بعدهم، بدلا من اعتماد الشواهد الأدبية الرفيعة من الأدب الراقي قديما أو حديثا؛ وذلك مثل التمثيل للتعقيد اللفظي بقول الفرزدق:

وما مثله في الناس إلا مملكا
أبو أمه حي أبوه يقاربه

أو للتعقيد المعنوي بقول العباس بن الأحنف:

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا
وتسكب عيناي الدموع لتجمدا

أو التمثيل بنحو: «بنىٰ الأمير المدينة»، و«أنبت الربيع البقل»، ونحو ذلك.

وقد سلِم كثير من المعاصرين من هذا المزلق واجتهدوا في البحث عن شواهد أدبية طيبة.

كثافة المصطلحات

تفنن المتأخرون في اختراع مصطلحات جديدة، للمعاني

البلاغية المحدَثة، أضافوها إلىٰ المصطلحات التي وضعها المتقدمون.

وحاز السبقَ في هذا الباب: علم البديع، فقد اشتد التنافس في اختراع أنواع جديدة منه، وصار ذلك علامة علىٰ المهارة اللغوية.

وكثرت عند المتأخرين: البديعياتُ، وهي قصائد في مدح رسول الله ﷺ، يحتوي كل بيت منها علىٰ فن من فنون البديع.

ولأجل كثرة هذه الألفاظ، احتاج الناس إلىٰ وضع معجمات مختصة بالمصطلحات البلاغية(١).

ويمكنني أن أقول: إن علىٰ الطالب أن يأخذ من هذه المصطلحات التي زادها المتأخرون، صبابةً يسيرة، تجعله قادرا علىٰ التعبير عن المعاني المتداولة بكلمات محصورة مع القدرة علىٰ فهم كتابات العلماء المتأخرين دون كبير عناء. ولكن لا ينبغي له المبالغة في الاشتغال بها، لقلة ما في ذلك من النفع إن قورن بعظيم ما فيه من عسر التعلم.

وسيأتي -إن شاء الله- نظير هذا الإشكال عند الكلام عن علمي العروض والقافية.

وهذا أوان بيان المنهج المقترح لتعلم فن البلاغة.

البدء

أفضل ما يبدأ الطالب بدراسته، كتاب: «البلاغة الواضحة»

---

(١) منها مثلا: كتاب معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، لأحمد مطلوب.

لمؤلفَيه: علي الجارم وأحمد أمين، وتميُّزه راجع للأسباب ذاتها التي ذكرتُ من قبلُ عن كتاب «النحو الواضح». ويزيد كتاب «البلاغة الواضحة» بالانتقاء الحسن للشواهد الأدبية الراقية[1].

وليحرص الطالب علىٰ حل التمرينات المقترحة، ومقارنة أجوبته بما في كتاب «دليل البلاغة الواضحة»، الذي وضع فيه المؤلفان حلول التمرينات.

ثم ليعمد إلىٰ كتاب «جواهر البلاغة» للسيد الهاشمي، فليقرأه قراءة تمعن مع تلخيص مقاصده الكبرىٰ في كراسة.

وليختم هذه المرحلة بالتعرف إلىٰ تاريخ هذا العلم من خلال قراءة كتاب: «البلاغة تطور وتاريخ» لشوقي ضيف.

التوسط:

يعتني الطالب في هذه المرحلة بحفظ نظم «الجوهر المكنون» للأخضري، ويدرس شرحه المسمىٰ: «حلية اللب المصون». وليستعن في الفهم والتوسع بدروسِي المسجلة المتداولة في شرح هذا النظم.

ثم ليقرأ كتاب «المنهاج الواضح في البلاغة» لحامد عوني، وهو نفيس جدا في ترتيبه وأسلوبه، مع أنه مغفول عنه من أكثر الطلبة!

---

(١) من تجربتي الشخصية: أنني كنت في زمن الصبا مدمنا علىٰ قراءة هذا الكتاب، حتىٰ تقطعت أوراقه بين يديّ! وما كان يحملني علىٰ قراءته سوىٰ متعة قراءة الاختيارات الأدبية الرائقة فيه.

وتكميل هذه المرحلة يكون بقراءة الكتابين اللذين يعدان الأساس الذي بني عليه هذا العلم، وهما: «دلائل الإعجاز» و«أسرار البلاغة» لعبد القاهر الجرجاني.

التوسع:

يتوسع الطالب -إن شاء- في هذا الفن بدراسة متن التلخيص للقزويني، الذي هو للبلاغة ما خلاصةُ ابن مالك للنحو! وهذا المتن ملخص من كتاب «مفتاح العلوم» للسكّاكي. وقد اعتنىٰ المتأخرون بالتلخيص، فصار العمدة في «البلاغة الصناعية»، لا يتجاوزه المتأخرون إلىٰ غيره.

وقد كثرت شروحه جدا، وجمع بعضها في كتاب واحد ذي أربعة أجزاء عنوانه «شروح التلخيص».

والذي أراه -عن تجربة- أن يكتفي الطالب بدراسة المتن مع شرح بهاء الدين السبكىٰ المسمىٰ: «عروس الأفراح» والشرح المختصر لسعد الدين التفتازاني.

وإن أسعفته حافظته أن يحفظ نظمه المسمىٰ «عقود الجمان» للسيوطي، فليفعل، وإن كنت لا أرىٰ ذلك نافعا في تحصيل الملكة، وإنما يفيد في استحضار المصطلحات والتعريفات، وحسن ترتيب المسائل.

واكتساب الملكة اللغوية في مجال البلاغة، إنما يكون بالقراءة الكثيفة في كتب الأدب عموما، وفي كتب مخصوصة اعتنىٰ

أصحابها بالمعاني، مثل: «ديوان المعاني» لأبي هلال العسكري، و«الوساطة بين المتنبي وخصومه» للقاضي الجرجاني، و«الموازنة بين أبي تمام والبحتري» للآمدي، ونحوها.

ومن النافع أيضا: أن يتدبر الطالب ما في الكتاب العزيز من نفائس البلاغة البالغة المدىٰ الذي لا يدركه بشر. وليستعن في ذلك بالنظر في كتب التفسير الميمّمة هذه الوجهة، وعلىٰ رأسها: «الكشاف» للزمخشري، و«التحرير والتنوير» لابن عاشور.

ثم ليقرأ بعض الكتب المكمّلة، مثل:

- «المثل السائر» لابن الأثير.
- «إعجاز القرآن» للباقلاني.
- «العمدة في صناعة الشعر ونقده» لابن رشيق القيرواني.

وسيأتي -إن شاء الله- في الزاد الأدبي، ذكر بعض الكتب النافعة في تحصيل البلاغة التطبيقية.

المبحث الثالث

في العروض

الشعر ديوان العرب الخالد.

وإذا كانت الثقافات الأعجمية تعتني بفنون أدبية مختلفة من قصة ورواية ومسرح، فإن الثقافة العربية تجعل الشعر في مرتبة التصدّر بين مناحي الأدب جميعها. ولذلك فإن تكوين الملكة اللغوية ينبني -ولا بد- علىٰ إتقان صَنعة الشعر، واكتساب ملكة تذوقه، والتمكن من نقده.

والشعر الفصيح إنما يمتاز عن النثر الفني بالأوزان، التي يعتني علم العروض بضبطها.

وقد تعرض علم العروض -مثل غيره من العلوم اللغوية- إلىٰ هجمة شرسة، من دعاة التحريف الذي يسمونه تجديدا، فاستنكروا -لجهلهم به وعجزهم عن إتقانه- ما في هذا العلم من القواعد والمهارات والمصطلحات.

وليس من غايتي في هذا الفصل أن أناقش هذه الدعوات التجديدية، فلذلك موضع آخر إن شاء الله، ولكنني أكتفي بأن

أقول: إن التجديد في هذا العلم ممكن بل مطلوب، إذا كان المقصود به التجديد في أسلوب العرض وترتيب المباحث وحذف الطفيليات التي دخلت في كتب الفن فعسّرت علىٰ الطلبة التعامل معه.

ومما يحضرني في طرائق التجديد الممكنة:

• حذف بعض المباحث التي ليست من صميم العلم، وتكلف الطالب جهدا بالغا في فهمها، مثل: الدوائر العروضية التي ليس لها تعلق مباشر باكتساب مهارة الأوزان، ولكنها تعين علىٰ إدراك العبقرية الكامنة في إبداع الخليل لهذا العلم العجيب. فيمكن للطالب أن يتعلم العروض ويتقن فهمه دون أن يكون له أدنىٰ معرفة بهذه الدوائر العروضية.

• إلغاء بعض المصطلحات التي وضعها العروضيون لبعض الظواهر النادرة في الشعر، كالخزم والخرم والثلم والثرم ونحوها، وكذا المصطلحات المركبة التي يغني عنها أسماء أفرادها، كلفظ الفاصلة الصغرىٰ والكبرىٰ، فإنه يستغنىٰ عنها بالسبب والوتد(١)، وكالزحافات المركبة مثل الخبل، فإنه اجتماع الخبن والطي، وهذان يغنيان عنه.

ويدخل في هذا الباب أيضا إلغاء تدريس بعض الزحافات

---

(١) فالفاصلة الصغرىٰ مكونة من سبب ثقيل بعده سبب خفيف، والفاصلة الكبرىٰ مكونة من سبب ثقيل بعده وتد مجموع.

التي يذكر العروضيون جوازها في بحور مخصوصة، والحال أنها قليلة أو معدومة في تصرفات الشعراء، وذلك مثل: الكف في الطويل (والقبض أكثر استعمالا منه لكنه أيضا قليل). وكذا عدم التعريج علىٰ بعض الأعاريض والأضرب القليلة، كمجزوء المتقارب مثلا.

• إعادة ترتيب البحور الخليلية، بحسب أهميتها أو بحسب سهولة تعلمها، بدلا من الترتيب الحالي المبني علىٰ تقسيمها علىٰ الدوائر العروضية الخمس.

فأما ترتيبها علىٰ وفق الأهمية وكثرة الاستعمال في الشعر العربي، فيكون كالآتي[1]: الطويل - البسيط - الكامل - الوافر - الرجز - الخفيف - الخبب - المتقارب - الرمل - المنسرح - السريع - الهزج - المجتث - المديد - المقتضب - المضارع.

وفائدته: أن الطالب يعتني بالبحور الأولىٰ ويتقنها، ولا يضره إن انقطع ولم يكمل دراسة البحور جميعها، ما دام قد حصّل البحور التي مدار الشعر عليها. أما في الترتيب الخليلي المعروف، فإن الطالب -بعد أن يدرس البحر الطويل- يضيع وقتا ويبذل جهدا في تعلم البحر المديد بأعاريضه وأضربه، والحال أنه بحر ثقيل، قليل الاستعمال جدا!

وأما ترتيبها بحسب سهولة التعلم، فقد سبق لي أن جربتُ

(١) وهو ترتيب اجتهادي في بعض المواضع، واتفاقي في أخرىٰ.

ترتيبا خاصا في تدريس علم العروض، وإخاله ترتيبا ناجحا، ينفع الكثير من الطلبة. فبدأت بالهزج لأنه من أسهل البحور تمييزا بالسماع وحده دون تقطيع. ثم انتقلت إلىٰ مجزوء الوافر لأنه مشابه للهزج، حتىٰ إنهما يلتبسان علىٰ كثير من الناس. ومنه عرّجت علىٰ الوافر لأنه أصله. ثم لما شرحتُ تفعيلة «فعولن» عند دراسة الوافر، انتقلت إلىٰ البحر المبني عليها وهو المتقارب؛ ثم منه إلىٰ الطويل للتقارب بينهما. وهلم جرا.

والمقصود أن التجديد في مثل هذه المناحي، لا إشكال فيه، بل هو مما يحمد، لإعادة ربط طلبة العربية بهذا الفن المهجور!

وأما المنهج المقترح لدراسة هذا الفن، فهو مكون من مرحلتين:

المرحلة الأولىٰ:

يعمد الطالب فيها إلىٰ كتاب «ميزان الذهب في صناعة شعر العرب» للسيد الهاشمي، فيقرأه قراءة درس وتحقيق، مع الحرص علىٰ إنجاز التمرينات، وتقطيع الأبيات تقطيعا كاملا.

ويصنع الشيء نفسه مع كتاب «شرح كتاب أهدىٰ سبيل إلىٰ علمي الخليل» لمحمود مصطفىٰ. ثم يطالع كتاب «شفاء الغليل في علم الخليل» لمحمد بن علي المحلي. وهو كتاب تعليمي نافع جدا.

المرحلة الثانية:

يحفظ منظومة «مجدد العوافي من رسمي العروض والقوافي»

لمحمد بن عبدالله العلوي الشنقيطي. وهو علىٰ قلة اشتهاره، نافع جدا، ومحيط -مع الاختصار- بكل ما يحتاج إليه الطالب في هذا العلم، مع سلاسة في النظم، ويسر في التعبير.

وهو بلا شك يغني عن المتون المتداولة في هذا الفن كـ «الرامزة» للخزرجي، و«منظومة الصبان»، و«متن الكافي».

لكن يعيبه أن شروحه قليلة. ولذلك يمكن الاكتفاء في حل ألفاظه: بطرة الناظم، مع دروسي الصوتية في شرحه، وهي موجودة علىٰ الشبكة العنكبوتية.

وللاستزادة من هذا العلم، يمكن للطالب أن يطالع في هذه المرحلة:

- «العيون الغامزة» للدماميني.
- «الوافي في العروض والقوافي» للخطيب التبريزي.
- «الإرشاد الشافي شرح متن الكافي في علمي العروض والقوافي» للدمنهوري.

ثم ينطلق -بعد أن أتقن علم الخليل- إلىٰ ماشاء من كتب المتقدمين والمعاصرين.

المبحث الرابع

في الإملاء

ليس هذا عِلما قائما، وإنما هو مجموعة من القواعد المعِينة علىٰ الكتابة الصحيحة للكلمات العربية.

وهذه القواعد بالغة الأهمية، إذ يقبح بالكاتب أن يقع في مخالفتها، وإن كان كلامه سالما من اللحن، وكان محسنا أشد ما يكون الإحسان في انتقاء ألفاظه وتحرير معانيه.

كما أن الغلط في هذه القواعد يُحيل المعنىٰ، أو يلبسه علىٰ القارئ، خاصة عند عدم الضبط بالقلم (أي: الشكل)، وهذا هو الغالب في استعمال الناس. وقد رأيتُ عند مَن يُحسب من الدعاة والمفكرين، مَن يكتب مثلا: «مبتدأ» ومقصوده «مبتدئ»، ويكتب «دوائكم» وهو يعني «دواءكم»[(١)]!

وأما منهجُ تعلّم قواعد الإملاء، فينبغي التنبيه علىٰ أن في ما مضىٰ من كتب النحو والصرف، أبوابا مخصوصة لقواعد الخط.

---

(١) مبتدَأ بفتح الدال ما يقابل الخبر، ومبتدِئ بكسرها عكس المنتهي؛ ودوائِكم بكسر الهمزة، ودواءَكم بفتحها.

فمن درس ذينك العلمين لم يحتج إلىٰ مراجعة هذا المبحث.

ولكن قد يحتاج الطالب إلىٰ معرفة هذه القواعد قبل الغوص في تفصيلات النحو والصرف، فمن المناسب إذن أن يقرأ فيها كتابا مختصرا يوضح له السبيل.

والمقترح كتاب: «قواعد الإملاء» لعبد السلام هارون، فإنه علىٰ صغر حجمه، يغني عن كثير من الكتب المفصلة في هذا الباب.

ولست أرىٰ أن يحفظ الطالب في هذا الفن متنا، ولا أن يكثر من القراءة النظرية لكتبه، وإنما العمدة في إتقان القواعد علىٰ الممارسة العملية، وعدم الترخص بالكتابة كيفما اتفق!

الفصل الثاني

الزاد اللغوي

إن تحصيل الملكة اللغوية لا يكفي فيه الزاد العلمي الذي سبق تفصيله، بل لا بد من زاد لغوي يضاف إليه.

والزاد اللغوي لا يأتي فجأة، ولا يجتمع في الصدر -كالزاد العلمي- من دراسة محصورة، ولكنه يأتي بعملية تراكم مستمرة، تدوم سنوات طويلة، دون أن يكون لها حد معين. بل إن الموت يدرك الإنسان وهو لما يحصل بعدُ من هذا الزاد اللغوي غير صبابة يسيرة.

والسبب في ذلك أن اللغة بحر خضم لا ينحصر، ولا يمكن أن يحيط به أحد من الناس بالوسائل البشرية المعهودة. ولذلك قال الشافعي ﵀: «ولسان العرب أوسع الالسنة مذهبا وأكثرها ألفاظا، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي»[1].

ومع ذلك فإن المقصود في ما سيأتي من المباحث ليس الإحاطة باللغة -فإن ذلك ممتنع كما سبق بيانه-، وإنما المقصود

---

(1) الرسالة: ٤٢.

تحصيل طرف صالح، يرفع عن الطالب صفة الجهل بلسان العرب الأول، ويحلّيه بالقدرة علىٰ إدراك الكلام الفصيح وحسن الاستنباط منه عند الحاجة، والسلامة من الخلل والقصور في فهمه.

وليُعلم أن هذا جهد لا بد منه، لتنقية القلب من العجمة، فإن كثرة مخالطة أهل العصر، المتردّين في مهاوي الجهل بالفصحىٰ، والمتفرقة قلوبهم أيدي سبإ بين اللغات واللهجات، يفسد اللسان أيما إفساد حتىٰ يحتاج صاحبه إلىٰ الاغتسال اللغوي -بدَلك وفرك- لإزالة آثار العجمة.

وتأمل قول الجاحظ - وهو نفيس فلذلك نقلته كاملا -:

«ثم اعلموا أن المعنىٰ الحقير الفاسد والدنيء الساقط يعشش في القلب ثم يبيض ثم يفرخ فإذا ضرب بجِرانه ومكّن لعروقه استفحل الفساد وبزل، وتمكن الجهل وفرخ. فعند ذلك يقوىٰ داؤه ويمتنع دواؤه؛ لأن اللفظ الهجين الردي والمستكره الغبي، أعلق باللسان وآلف للسمع وأشد التحاما بالقلب من اللفظ النبيه الشريف والمعنىٰ الرفيع الكريم. ولو جالست الجهال والنوكىٰ والسخفاء والحمقىٰ شهرا فقط، لم تنق من أوضار كلامهم وخبال معانيهم بمجالسة أهل البيان والعقل دهرا؛ لأن الفساد أسرع إلىٰ الناس وأشد التحاما بالطبائع. والإنسان بالتعلم والتكلف وبطول الاختلاف إلىٰ العلماء ومدارسة كتب الحكماء يجود لفظه ويحسن أدبه، وهو لا يحتاج في الجهل إلىٰ أكثر من ترك

التعلم، وفي فساد البيان إلى أكثر من ترك التخير»[1].

واعلم أن طرق تحصيل الزاد اللغوي ثلاثة:

- من كتب متن اللغة،
- ومن نصوص الشريعة،
- ومن كتب الأدب.

وهذه الطرق هي ما سأبينه -إن شاء الله- في المباحث الثلاثة الآتية.

(١) البيان والتبيين: ١/ ٨٥-٨٦.

المبحث الأول

اللغة

والكلام في هذا المبحث يشمل ثلاثة مطالب:

أولها: تمهيد للدراسات اللغوية، يساعد الطالب علىٰ معرفة أصول علم اللغة وفقه اللغة، كما قررها السابقون في كتبهم القديمة، وكما يبسطها العصريون في بعض كتاباتهم المتأثرة بالمناهج الغربية. لكن طالب الملكة اللغوية يكفيه من ذلك شيء يسير يساعده علىٰ فهم بعض الأصول النظرية في الباب.

والثاني: بيان المتون والكتب التي تزود الطالب بثروة من المفردات والتراكيب اللغوية، يستعين بها في الكتابة والخطابة.

والثالث: معرفة المعاجم اللغوية التي يقرأها الطالب، أو يجعلها قريبا من يده يرجع إليها عند الحاجة، وتعينه علىٰ فهم النصوص القديمة.

وهذا بيان المنهج المقترح في هذه المطالب الثلاثة:

• المطلب الأول: تمهيد في علم اللغة وفقهها

من المفيد جدا أن يبدأ الطالب بقراءة كتاب «دراسات في فقه

اللغة» لصبحي الصالح. ويكمل فوائده بمطالعة كتابي: «علم اللغة» و«فقه اللغة» كلاهما لعلي عبد الواحد وافي، وبكتاب «فصول في فقه العربية» لرمضان عبد التواب.

ولا شك أن قراءة هذه الكتب الأربعة بتمعن، تغني عن كثير من المؤلفات الأخرىٰ في الباب.

وينهي الطالب هذا المنحىٰ العلمي النافع، بالكتاب الفذ الجامع المسمىٰ بـ: «المزهر في علوم اللغة» للعلامة السيوطي، فقد جمع فيه -علىٰ عادته المشهورة- زبدة مباحث هذا الفن من الكتب السابقة، بل أودعه لباب بعض الرسائل العلمية في الفن، علىٰ ترتيب حسن وأسلوب سلس في العرض.

وهذا الكتاب من الأصول التي لا يستغني طالب العربية عن دراستها، وهو مما يفتح له آفاقا عظيمة في تفهم هذه اللغة الشريفة.

ويمكن تكميل هذا المطلب بمبحثين صغيرين:

أولهما: علم الاشتقاق، وهو علم ذو تعلق بما نحن بصدده هنا، كما أن له تعلقا بعلم الصرف. ويكفي الطالب فيه كتاب: «الاشتقاق» لعبد الله أمين، فقد سبق في فصل النحو والصرف، ذكر كتب فيها فصول نافعة في علم الاشتقاق.

والثاني: معرفة الأخطاء الشائعة علىٰ الألسنة، ويكفي فيه كتابان عصريان، هما: «معجم الأخطاء الشائعة» لمحمد العدناني، وكتاب «قل ولا تقل» لمصطفىٰ جواد.

ولست أرىٰ الإكثار من القراءة في معاجم الأخطاء الشائعة، ولا التسليم لكل ما يذكر فيها؛ فهذه المعاجم -في أحيان كثيرة- إما أن تنحو منحىٰ التشديد والتعنت في التخطئة، وإما أن تنحو منحىٰ التساهل في قبول ما ليس بالفصيح بدعوىٰ انتشاره وعموم البلوىٰ به.

والطالب الفطن يكفيه ما حصله في دراسته النحوية والصرفية واللغوية، وفي ممارسته لكلام الفصحاء، ليستطيع التمييز بين ما هو صحيح فصيح لا غبار عليه، وما هو خطأ قبيح لا يرتاب فيه، وما هو خلافي يحتمل هذا وذاك، فيجتنب في عالي الكلام، ويقبل في وسطه.

• المطلب الثاني: معرفة الألفاظ والتراكيب النافعة في الكتابة والخطابة

وليعلم ابتداء أن كثيرا من هذه الألفاظ والتراكيب، يمكن تحصيلها بالقراءة الكثيرة في نصوص الشريعة الأصلية، ودواوين الشعر، ومصنّفات الأدب - علىٰ ما سيأتي تفصيله إن شاء الله. ولكن يمكن اختصار وقت كثير، وتلافي جهد كبير، بحفظ بعض المتون أو قراءة كتب مخصوصة قراءةَ درس وتكرار وتمحيص.

فمن أفضل ما يحفظ في هذا الباب: نظم «موطأة الفصيح» لمالك بن المرحل، فإنه نظم فيه كتاب «الفصيح» لأبي العباس ثعلب، بأبيات عذبة سلسة، تحفظ بسهولة بالغة، وتحتوي فوائد

رائقة، بعضها من الأصل، وبعضها زيادات من الناظم.

ومن أعياه حفظ النظم كاملا، فليختر منه أبياتا يراها أولىٰ بالحفظ من غيرها، لاشتمالها علىٰ فائدة شاردة، أو تنبيه علىٰ غلط شائع، أو ما أشبه ذلك.

وأما في المطالعة، فليقرأ: كتاب «الألفاظ الكتابية» للهمداني، وكتاب: «كفاية المتحفظ» لابن الأجدابي.

وليدمن النظر في كتاب «نجعة الرائد» لليازجي، فإنه كتاب مغفول عنه، مع عظيم فائدته لمن يعتني بصنعة الشعر أو النثر، ويمارس الكتابة أو الخطابة بالفصحىٰ.

وهذا المطلب لا يكفي فيه الحفظ المجرّد، ولا القراءة الخالصة، وإنما يلزم الطالب أن يتأمل الألفاظ، ويطيل نظره في التراكيب، ثم يسارع إلىٰ استعمالها في إبداعه لأدنىٰ مناسبة، فإن اللفظ إذا استعمل قرّ في الذهن، وصار من الزاد المحصّل الذي يندر أن يُنسىٰ.

• **المطلب الثالث: المعاجم اللغوية**

ومن أفضل ما يبدأ به الطالب أن يمر بقراءة سريعة علىٰ كتاب: (المعجم العربي - نشأته وتطوره) للدكتور حسين نصار، ليكون لديه اطلاع علىٰ فن المعاجم، وتاريخ التأليف فيه، ومعرفة بأشهر المعاجم المتداولة.

كما أن البحثَ في المعاجم العربية -خلافا لبعض اللغات

الأخرىٰ- لا يكون إلا بعد معرفة شيء معتبر من علم الصرف. ومن الأخطاء الشائعة عند طلبة العصر تعاملهم مع المعاجم القديمة دون معرفة بهذا العلم الشريف، فتقع لهم بسبب ذلك أوهام وأغلاط.

ومن المؤلم أن أكثر الطلبة يتعاملون مع المعاجم عند الحاجة فقط، فتجدها في مكتباتهم يعلوها الغبار، ولا تفتح إلا لماما!

ونتيجةُ هذا الهجر: انعدام الأنس بترتيب المعجم واصطلاحاته ومنهجه، وقلة الدربة في التعامل معه.

يذكر الطناحي[1] في ترجمة أبي فهر محمود شاكر أنه قرأ (لسان العرب) كله، و(الأغاني) كله، وهو طالب بالثانوي. ويعلق الطناحي قائلا: (فهل تظن أن أديبا من أدباء عصرنا قرأ هذين الأثرين، وهو في سن الثالثة عشرة أو الخامسة عشرة؟)[2].

وتحقيقا لهذا المعنىٰ، فإن من اللازم أن يكون للطالب قراءة دورية في بعض المعاجم المتداولة، فوق رجوعه إليها للبحث عن معاني الكلمات المستعصية.

والمقترح أن يبدأ الطالب بقراءة معجم صغير كالمصباح المنير للفيومي، أو مختار الصحاح للرازي.

وإن أراد الازدياد من الخير فليطالع في «القاموس المحيط» للفيروزابادي، وفي «الصحاح» للجوهري، وفي «تهذيب اللغة»

---

(١) مقالاته: ٢/ ٥٢٠.

(٢) هذا فضلا عن بعض علماء شنقيط الذين كانوا يحفظون «القاموس» عن ظهر قلب!!.

للأزهري، وفي «المخصص» لابن سيده.

ولا يلزمه أن يقرأ هذه المعاجم الأربعة كاملة، وإنما يكون له فيها قراءة دائبة، تجعله علىٰ اطلاع كاف علىٰ مناهجها وأساليبها، وعلىٰ معرفة بكثير من المفردات الواردة فيها.

ثم تكون أبواب النظر في المعاجم الأخرىٰ أمامه مترعة، وأخص المعجمين العظيمين: «لسان العرب» لابن منظور -وهو مبني علىٰ بعض المعاجم السابقة كما سيأتي-، و«تاج العروس من جواهر القاموس» للزبيدي؛ فإنه قلّ أن يفوتهما من لسان العرب شيء معتبر.

وليحذر الطالب الذي يرغب في تكوين ملكة لغوية عالية من الاعتداد بالمعاجم العصرية التي تجمع البعر والخرز الثمين!

ولا ريب أن في هذه المعاجم الحديثة -وعلىٰ رأسها ما تصدره المجامع اللغوية، كالمعجم الوسيط الصادر عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة- جهدا مشكورا في مجال تيسير البحث المعجمي، وتعريب الكثير من الألفاظ الأجنبية. ولكن وقع لهم تتبع للرخص اللغوية، وتساهل كبير في إثبات بعض التراكيب الصرفية، التي نص المتقدمون علىٰ منعها أو شذوذها. فالمتعين علىٰ طالب العلم أن يقارن ما يجده في هذه المعاجم بالمنقول عن أئمة اللغة الأوائل.

المبحث الثاني

النصوص الدينية الأولى

لا أظنني مُبالغا إن زعمت أن تحصيل الملكة اللغوية له تعلق كبير بمقدار التبحر في نصوص الشريعة الأولىٰ. فهذه النصوص هي اللب والأساس الذي تستخرج منه أعلىٰ قواعد العربية، وأكثر التعبيرات بلاغة. فإن فرضنا ضعيفا في معرفتها فهو ضعيف في ذوقه اللغوي، أو متوسطا فهو متوسط في ملَكته اللغوية، فإن انتهىٰ إلىٰ درجة التمكن من نصوص الوحيين وما تعلق بهما، فقد بلغ الغاية في معرفة اللغة العربية، وامتلاك ناصية التعبير اللغوي الفصيح.

ومنذ استنارة أرجاء الجزيرة العربية ببعثة الرسول الكريم ﷺ، ارتبطت اللغة العربية بدين الإسلام وبمصادره الأصلية، حتىٰ لم يعد انفكاكهما متصورا، حتىٰ عند من لا يؤمن بالإسلام من أهل العربية.

ولأجل هذا المعنىٰ، وجدنا الأديب الكاتب البليغ أبا إسحق الصابي قديما ينشأ علىٰ دين الصابئة الحرانيين، ولكنه مع ذلك

يحفظ القرآن ويصرّف آياته في كتاباته! ووجدنا في عصرنا الأدباء وعلماء العربية من نصارىٰ العرب مثلا، يقبلون علىٰ تعلم القرآن، واستعمال آياته وكثير من الأحاديث والآثار عن السلف في تعبيراتهم.

ومن بركة القرآن والحديث، أنني رأيت من يقبل علىٰ تعلم كتاب الله حفظا وتجويدا ودراسة، وعلىٰ تعلم ما تيسر من الحديث النبوي حفظا وقراءة، مع ما يتعلق بذلك من قراءة الآثار السلفية وكتب السيرة والتاريخ، فيفصح لسانه، وتجزل لغته، ويسلم من اللحن والعجمة، مع أن زاده من علوم اللغة قليل جدا، بل هو كالمعدوم. وهذا شيء مشاهد مجرب.

وإذا علم هذا، فالمتعين علىٰ طالب الملكة اللغوية أن يعطي ما في هذا المبحث حظه الكامل من الجهد والهمة، وأنا ضامن له -بإذن الله تعالىٰ- أن يخرج بلسان فصيح، ومعرفة لغوية سامقة.

ومدار هذا المبحث علىٰ أربعة مطالب:

الأول: القرآن الكريم،

والثاني: السنة النبوية،

والثالث: الآثار السلفية،

والرابع: السيرة والتاريخ.

• المطلب الأول: القرآن الكريم

كلام الله تعالىٰ هو أساس الفصاحة، ولب لباب البلاغة.

ومِن أطرف الطريف أن يَعرِض بعض الجهلة آيات القرآن علىٰ ميزان قواعد اللغة ليلتمس فيها مخالفة لها! وهل أُخذت هذه القواعد إلا من القرآن ابتداء، فكيف تعارضُ الأصل بالفرع؟

وإذا كان القرآن بهذه المرتبة العليا التي لا يحام حولها، فطوبىٰ لمن قرأه وحفظه وتدبره، واغترف من معينه ما يروي به ظمأه، واقتطف من رياضه ما يزيّن به منطوقه ومكتوبه.

وقد أثنىٰ كبار أئمة الأدب قديما وحديثا علىٰ من يقتبس من كتاب الله العزيز، ويضمّن ذلك في خطبته أو كتابته.

قال الجاحظ:

«وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل، وفي الكلام يوم الجمع آي من القرآن، فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقة وحسن الموقع.

قال الهيثم بن عدي: قال عمران بن حطان: إن أول خطبة خطبتها عند زياد -أو قال عند ابن زياد- فأعجب بها زياد، وشهدها عمي وأبي، ثم إني مررت ببعض المجالس فسمعت رجلا يقول لبعضهم: (هذا الفتىٰ أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن)»[1].

واشتهر الرافعي في العصر الحديث بغوصه وراء الدرر القرآنية، وتعمد ترصيع كتابته بها، فكان أسلوبه -لأجل ذلك ولغيره

---

(١) البيان والتبيين: ١/ ١١٨.

أيضا- في ذروة الفصاحة، وقُنّة الرُّواء والطلاوة. وقد حكىٰ في كتابه «تحت راية القرآن» أن بعضهم صرّح له بأنه لو ترك في أسلوبه الجملة القرآنية والحديث الشريف لكان أجدىٰ عليه، ولصار في الأدب مذهبا وحده!

وكلامُ هذا المنكِر صريح في إرادة هدم الفصاحة بحجة التجديد فيها؟ وكيف يكون التجديد في الأسلوب بقطع الوشيجة بأزكىٰ أسلوب وأحلاه وأرفعه في مدارج الجمال؟

وطرائق الاستفادة من القرآن الكريم في المجال اللغوي كثيرة، أجتزئ هنا بذكر بعضها اختصارا.

فأول ما يعتني الطالب به: حفظ كتاب الله كاملا، فإن أعجزه ذلك -وما أظن صاحبَ همة يعجز عن ذلك مع تيسير الله له- فلا أقلّ من أن يدمن قراءته، حتىٰ تصير العبارات القرآنية منه علىٰ طرف الثمام.

وليحرص علىٰ تعلم قواعد التجويد، ورياضة لسانه وفكّه بها، حتىٰ يعتاد النطق العربي الفصيح. ولست أعرف شيئا يعين الطالب علىٰ حسن النطق بحروف العربية وكلماتها مثل دراسة علم التجويد. وقد رأيت من فرّط في هذا العلم، لا يستقيم لسانه بكلام عربي، ولا يزال يخلط بين الحروف، ويستثقل الانتقال من حركة إلىٰ أخرىٰ، ولا يميز بين شدة وسكون، وهلم جرا.

وليعتن بمعاني مفردات القرآن، فإن ذلك يزوّده بثروة لغوية عظيمة، يجدها في متناوَل لسانه أو قلمه عند الحاجة. واللفظ

القرآني في تصاريفه المختلفة لا يُعلىٰ عليه في تأدية المعاني، وتحسين الأساليب.

ويمكن للطالب أن يستعين في ذلك بالكتاب الفذ المسمىٰ «المفردات في غريب القرآن» للراغب الأصبهاني.

ولحفظ القرآن وقراءته أهميةٌ كبيرة في ضبط كثير من قواعد النحو والصرف واللغة.

فقارئ القرآن لا يقول مثلا: «نسَيتُ ورضَيتُ» بل يقول: «نسِيت ورضِيت» لأنه يقرأ قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ١٠٧].

وقارئ القرآن لا يخلط مثلا بين «نفِد ينفَد» و«نفَذ ينفُذ». وكيف يخلط بينهما وهو يقرأ قوله تعالىٰ: ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف: ١٠٩] ﴿فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن: ٣٣]؟

وقارئ القرآن لا تعسر عليه بعض أحكام نون التوكيد، لأنه يقرأ قوله تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقوله سبحانه: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ [مريم: ٢٦]، ونحو ذلك.

وأما البلاغة، فمن القرآن الكريم نبعت، وفيه أصولها وأصنافها، وقواعدها وشواهدها. وكل قاعدة بلاغية تخالف ظاهر

القرآن فهي مردودة على قائلها، كائنا من كان[1].

● المطلب الثاني: السنة النبوية

طوبى لمن ملأ وطابه من كلام أفصح ناطق بالضاد!

ومغبون من انشغل عن كلام سيد الفصحاء وإمام البلغاء، بكلام غيره من الأدباء والشعراء!

وقد أخبر النبي ﷺ عن نفسه بامتلاكه ناصية الكلام الموجز الفصيح، بقوله: «بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ» [رواه البخاري ومسلم]. ففي كلامه عليه الصلاة والسلام براعة في الجمع، وإعجاز في الإيجاز، وقلة لفظ مع كثرة المعاني.

قال عنه مقدم أهل الصنعة، عمرو بن بحر الجاحظ:

«وهو الكلام الذي قلّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجَلَّ عن الصَّنعة، ونُزِّه عن التكلف، وكان كما قال اللّه تبارك وتعالى: قل يا محمد: «وما أنا مِنَ المتكلِّفين»، فكيف وقد عابَ التشديق، وجانب أصحاب التقعيب، واستعمل المبسوطَ في موضع البسط، والمقصورَ في موضع القصر، وهَجَر الغريبَ الوحشيَّ، ورغِبَ عن الهجين السُّوقيّ، فلم ينطِقْ إلا عن مِيراثِ حكمَةٍ، ولم يتكلَّم إلا بكلامٍ قد حُفَّ بالعصمة، وشُيِّد بالتأييد، ويُسِّرَ بالتوفيق. وهو

---

(١) تأمل مثلا تراجع ابن الأثير عن قول كان يقول به، حين ظهر له أنه مخالف للقرآن. قال رحمه الله: «وقد كان هذا هو المذهب عندي، حتى وجدت كتاب الله تعالى قد ورد بخلافه، وحينئذ عدت عما كنت أراه وأقول به». (المثل السائر: ٢/ ١٧٠).

الكلامُ الذي ألقَىٰ اللّه عليه المحبّةَ، وغشَّاهُ بالقَبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبَيْن حُسنِ الإفهام، وقلّة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقِلّةِ حاجة السامع إلىٰ معاوَدته. لم تسقط له كلمة، ولا زَلّت به قَدَم، ولا بارَتْ له حجَّة، ولم يَقُم له خَصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبذُّ الخُطَبَ الطِّوال بالكلِم القِصار ولا يَلتمِس إسكاتَ الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتجُّ إلا بالصِّدق ولا يطلب الفَلْج إلا بالحق، ولا يستعين بالخِلابة، ولا يستعمل الموارَبة، ولا يهمِز ولا يَلْمِز، ولا يُبْطِيءُ ولا يَعْجَل، ولا يُسْهِب ولا يَحْصَر، ثم لم يَسْمع الناسُ بكلامٍ قَطّ أعمَّ نفعًا، ولا أقصَدَ لفظًا، ولا أعدلَ وزنًا، ولا أجملَ مذهبًا، ولا أكرَم مطلبًا، ولا أحسنَ موقعًا، ولا أسهل مخرجًا، ولا أفصح معنًىٰ، ولا أبين في فحوَىٰ، من كلامه ﷺ كثيرًا)[1].

وفي الحديث النبوي تراكيب رائقة، يشعر سامعها بعلو فصاحتها، مع سهولة مفرداتها، مما لا يكاد يتأتىٰ لبلغاء هذه الأزمنة المتأخرة. فتراهم يحومون حول ذلك، ولا يدركون بعضه إلا بعد جهد بليغ!

فتأمل مثلا هذه الأحاديث الثابتة في الصحيح:

- «لا تقتله فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال».

---

(١) البيان والتبيين: ٢/١٣-١٤.

- «مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع، تَفِيئُها الريح، تصرعها مرة، وتعدلها أخرىٰ حتىٰ تهيج، ومثل الكافر كمثل الأرزة المجْذِية علىٰ أصلها، لا يفيئها شيء حتىٰ يكون انجعافها مرة واحدة».

- «ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، كره لقاء الله وكره الله لقاءه».

والمقترح للاستفادة من نفائس اللغة المودعة في الأحاديث النبوية: أن يكون للطالب وِرد يومي أو أسبوعي من قراءة دواوين الأحاديث المجردة عن الإسناد، مثل: رياض الصالحين، ومختصر صحيح البخاري للزبيدي، ومختصر صحيح مسلم للمنذري.

وإن قرأ مع ذلك بعض شروح الحديث، كان في ذلك محسنا غاية الإحسان.

كلام السلف

والسلف الصالح هم أئمة الدين، وفهمهم للوحيين إمامُ الفهوم، وهم فوق ذلك -في الغالب الأعم- عرب أقحاح، أو متعربون في عصور الفصاحة، التي لا يقبل فيها اللحن من صاحبه، ولا يعذر متكلم في الدين بعجمته.

ولذلك بلغ كلامهم الغاية في الأخذ بمجامع البلاغة، مع صحة المعاني وقلة التكلف فيها.

وأين تجد في كلام المتأخرين مثلَ قول عمر ﷺ: «فوالله ما هو إلا أن رأيتُ أن قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال فعرفتُ أنه الحق»، ومثل قول عائشة ﷺ: «يا رسول الله: إن أبا بكر رجل أسيف وإنه متىٰ ما يقم مقامك لا يُسمع الناس»، وقول عمر ابن عبد العزيز عن العلماء: «وليفشوا العلم، وليجلسوا حتىٰ يعلم من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتىٰ يكون سرّا»، وما أشبه ذلك.

ولعلّك حين لا ترىٰ في هذا الكلام مفردةً مستغربة، تحسَب أنه كلامٌ سهل الصياغة، في متناول من يقصده من الكَتبة. والحق أنه ممتنع علىٰ سهولته، لا يُسلم قياده إلا لذي خبرة ودُربة.

ومن أخطر ما يسيء للغة العربية الفصحىٰ في زمننا، أن الكاتبين بها لا يخرجون في الغالب عن أحد صنفين:

أولهما من يكتب باللغة المهجّنة التي ينشرها الإعلام المكتوب والمسموع والمرئي، وتكثر فيها الألفاظ المعربة والتراكيب الأعجمية، ويشيع فيها التساهل في الإعراب والخلط بالعامية؛

والثاني من يكتب بلغة المتأخرين من الأدباء والعلماء، ويتحرىٰ في كتابته الحوشي من المفردات، والمتأثرَ بالكلام والمنطق من التراكيب والعبارات.

والغريب النادر أن يوجد من يحرص على الكتابة علىٰ طريقة السلف الأولين، التي هي المنبع الصافي، المرتفعُ عن المؤثرات المُفسدة جميعها. وإنما كان هذا نادرا، لقلة اعتناء طلبة العلم

والأدب بقراءة كلام السلف من مظانه.

وكلام السلف منثور في كتب كثيرة متباينة المقاصد.

فمنها كتب الحديث، كالصحيحين والسنن والمسانيد والمصنفات وغيرها.

ومنها كتب التفسير الأثرية التي تعتني بنقل كلام الصحابة والتابعين في تفسير القرآن الكريم.

ومنها كتب الفقه الأولىٰ، وأخصّ منها كتب الإمام المطّلبي، فإنها من الفصاحة بالمكان الأوفىٰ.

ومنها كتب التراجم، فإن منها من كلام السلف كنوزا عسجدية.

فليكن للطالب اطلاعٌ علىٰ ما أمكنه من هذه التصانيف؛ فمهما استكثر من ذلك، قوي لسانه، وفصح بيانه.

كتب السيرة والتاريخ

وفي كتب السيرة والتاريخ العام، عجائب من فصيح الكلام، لا يتفطن لها كثير من الأنام.

ولذلك فإنني أنصح الطلبة كثيرا بالحرص علىٰ الكتب الأصلية القديمة في هذين الفنين، واجتناب كتب المعاصرين التي تتصرف في الروايات والأقوال، فتحكيها بأسلوب عصري، رجاءَ تقريبها للقراء. فيغيب في هذا التقريب لب الفصاحة، وتضيع فرصة واضحة لتعلم العربية من خلال القصص التاريخية.

وخلال تدريسي للسيرة النبوية في بعض المعاهد، ولأنني اضطررت لتدريس كتاب «الرحيق المختوم» للمباركفوري مراعاةً مني للمستوىٰ العلمي للطلبة، فإنني كنت أحرص -مع ذلك- علىٰ قراءة الأقوال التراثية بنصها، وعدم التصرف فيها أو حكايتها بأسلوبي الشخصي.

وأرشح للطالب أربعة كتب ينبغي العناية بقراءتها، وهي:

• أيام العرب في الإسلام، جمع: محمد أبو الفضل إبراهيم ومحمد البجاوي.

• تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون (أو أصله لمن قدر عليه).

• البداية والنهاية لابن كثير.

• سير أعلام النبلاء للذهبي(١).

---

(١) من الكتب التاريخية النافعة لغويا: «وقعة صفين» لنصر بن مزاحم، و«مقاتل الطالبيين» لأبي الفرج الأصبهاني، لولا ما فيهما من مطاعن في السلف الصالح، وتأصيل لبعض المزالق العقدية.

المبحث الثالث

الأدب

لا تنفع علوم اللغة العربية دون ممارسة الأدب، ولا توجد ممارسة صحيحة للأدب دون تمكن من علوم العربية!

والغلط واقع في شقي هذه القضية!

فمِن الطلبة من يُفني عمره في دراسة النحو والصرف والبلاغة، ولكنه لا يقرأ في الأدب إلا صبابة يسيرة، بزعم كونه ضياعا لوقت طالب العلم ولا يلائم غير البطالين، أو بدعوىٰ اشتماله علىٰ ما يخالف المروءة من تهتك ومجون!

والحق أن الأدب من حيث هو ركن ركين في علوم العربية، التي هي أساس علوم الشريعة. وما عهدنا العلماء الربانيين منذ زمن الصحابة إلىٰ عصرنا إلا محتفين به، معظمين لشأنه، معوّلين عليه في تصحيح الذوق اللغوي وإصلاح أحوال النفوس، غير ملتفتين إلىٰ ما فيه من النقائص ولا هاجريه لأجلها. وإن يكن بعض البطالين من أصحاب الهمم الدنيئة يهتمون ببعض أصناف الأدب، كالروايات والقصص الرديئة وقصائد الشعر التافهة، فليس ذلك

بالقاعدة العامة التي يُترك لأجلها الأدب كله. وذلك أن الشيء إذا غلب خيرُه شرَّه، وجاوزت مصلحتُه مفسدَتَه، وجب في حكم الشرع والعقل معا، أن يُتغافل عما فيه من مفسدة قليلة تحصيلا لما فيه من المصالح العظيمة!

وفي الضفّة الأخرىٰ، أقوام جعلوا الأدب شعارا لمعارفهم ودثارا، وتركوا لأجله العلوم كلها. فلا تحدثهم عن نحو ولا صرف ولا بلاغة ولا لغة، ولكن إنما هو الشعر والرواية والنثر الفني. وما سوىٰ ذلك عندهم في حكم العدم!

وهؤلاء يبحثون عن السهولة، وينقّبون عن المتعة، ولا قِبل لهم بكدّ الذهن، وإجهاد العقل. ولكنها سهولة تعقبها حيرة وجهل، ومتعة تخلفها ندامة وضياع عمر!

وقد كان أدباء العربية المتقدمون أهل معرفة بعلوم اللغة، فتأمل ترجمة المتنبي والمعرّي وأشباههما، فضلا عمن سبقهم من الرعيل الأول، الذي كلامه حجة!

فالمتعين إذن: الجمع بين الحسنيين!

وقد سبق بيان العلوم، وهذا أوان الكلام في الأدب. وجماع ذلك في مراحل:

- **المرحلة الأولىٰ:**

الغاية منها الاستئناس بالقراءة الأدبية، والتدرب عليها، مع وضع اللبنات الأولىٰ للبناء الأدبي الباذخ الذي يراد تشييده.

ومدار ذلك علىٰ الكتب الآتي ذكرها:

- «المنتخب من أدب العرب» لخمسة كتاب هم: أحمد الإسكندري وأحمد أمين وعلي الجارم وعبد العزيز البشري وأحمد ضيف. وهو عِلق نفيس، جمع فيه المؤلفون مختارات شعرية ونثرية راقية من عصور الأدب المختلفة.

- «الوسيط في الأدب العربي وتاريخه» للشيخين أحمد الإسكندري ومصطفىٰ العناني. وهو كتاب حسن في التأريخ للأدب العربي.

- «جمهرة خطب العرب» و«جمهرة رسائل العرب» كلاهما لأحمد زكي صفوت. وهما كتابان عظيمٌ نفعهما في تكوين الملكة اللغوية.

- مجموع أعمال الأديب المصري مصطفىٰ لطفي المنفلوطي.

- المرحلة الثانية:

والمقصود فيها: قراءة بعض كتب الأدب الأصلية، وحفظ بعض الأشعار التي لا يستغني الطالب عن حفظها. وتحصيل ذلك في محاور:

١- الأول: حفظ بعض الشعر الفصيح

والمرشح لذلك «المعلقات السبع الجاهليات»، وليحفظها الطالب كاملة مع مطالعة شرحها المختصر للزوزني. ولن يجد الطالب صعوبة في التعامل مع هذه القصائد، لأنه سبق له في

المرحلة السابقة أن قرأ مختارات طويلة منها مع شرحها في كتاب «المنتخب»، كما تعرف إلىٰ أصحاب المعلقات في كتاب «الوسيط».

٢- الثاني: مطالعة الكتب التأسيسية في الأدب:

- كليلة ودمنة لابن المقفع.
- «البيان والتبيين» للجاحظ.
- «أدب الكاتب» لابن قتيبة.
- «الكامل» للمبرّد.
- «الأمالي» لأبي علي القالي، مع «سمط اللآلي».
- «الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني.
- «شرح ديوان المتنبي» للبرقوقي.
- «العقد الفريد» لابن عبد ربه الأندلسي.

٣- الثالث: قراءة للمعاصرين:

- «تاريخ الأدب العربي» لأحمد حسن الزيات.
- «أباطيل وأسمار» لأبي فهر محمود شاكر مع «مجموع مقالاته».
- «فيض الخاطر» لأحمد أمين. وأسلوبه فيها من أفضل ما يقتدي به الطالب المبتدئ، لجمعه بين الفصاحة والسهولة، مع التطرق للموضوعات الاجتماعية المتداولة.
- مجموع كتب الشيخ علي الطنطاوي، خاصة: «الذكريات»،

و«رجال من التاريخ»، و«قصص من التاريخ»، و«من حديث النفس»، و«مع الناس»، و«قصص من الحياة». وأسلوب الطنطاوي أيضا من أفضل ما يأتسي طالب الأدب المبتدئ به.

• المرحلة الثالثة:

والغاية منها الانطلاق إلىٰ القراءة الأدبية الموسعة التي تفتق المواهب الأدبية، وترسخ الملكة اللغوية. وذلك في محاور أيضا:

١- الأول: الشعر القديم

وذلك بقراءة دواوين الشعر القديم، في عصور الاحتجاج، فإنها الأساس الذي تبنىٰ اللغة عليه، وذلك مثل: «المفضليات»، و«الأصمعيات»، و«دواوين الشعراء الستة الجاهليين» للأعلم الشنتمري، و«ديوان الحماسة» لأبي تمام بشرح المرزوقي، و«ديوان الهذليين»، و«جمهرة أشعار العرب».

ثم يقرأ ما شاء من دواوين الشعراء الفحول، مثل حسان وبن ثابت وكعب بن زهير والحطيئة وعمر بن أبي ربيعة وجرير والفرزدق والأخطل وبشار بن برد والعباس بن الأحنف ومسلم بن الوليد وأبي نواس وأبي العتاهية وأبي تمام والبحتري والمتنبي وأبي العلاء المعري والشريف الرضي، وأضرابهم.

ولا بأس أن يضيف بعض الشعر الحديث المتميز في لغته أو معانيه، أو فيهما معا، مثل دواوين أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وخليل مطران وعمر أبو ريشة وغيرهم.

٢- الثاني: الكتب الأدبية:

وهذا باب واسع جدا، فليعتن الطالب بالأولىٰ.

وذلك مثل «الحيوان» و«مجموع الرسائل» للجاحظ. وليحذر من اعتزالياته ومن طعنه علىٰ سلف الأمة.

ومثل: «الإمتاع والمؤانسة» و«البصائر والذخائر» و«أخلاق الوزيرين» لأبي حيان التوحيدي.

ومثل مقامات البديع الهمذاني، ومقامات الحريري بشرح الشريشي.

ومثل موسوعات الأدب الكبيرة: «شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد، و«نفح الطيب» للمقّري، و«صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشا» للقلقشندي، و«نهاية الأرب في فنون الأدب» للنويري، و«زهر الآداب» للحُصري.

ومثل كتب الأمثال، وعلىٰ رأسها: «مجمع الأمثال» للميداني.

ومثل كتب التراجم الأدبية، كـ«معجم الأدباء» لياقوت الحموي، و«إنباه الرواة علىٰ أنباه النحاة» للقفطي.

٣- الثالث: كتابات المعاصرين:

وفيها:

- سلسلة الدكتور شوقي ضيف في تاريخ الأدب، وهي معروفة متداولة.

- وكتب الرافعي، خاصة: «وحي القلم»، و«تحت راية القرآن» و«على السفود».
- وما بقي من كتب أبي فهر محمود شاكر، خاصة «المتنبي».
- و«وحي الرسالة» لأحمد حسن الزيات.
- وما تيسر من كتب: المازني وزكي مبارك والعقاد وطه حسين والإبراهيمي وغيرهم.

الفصل الثالث

الدّربة التطبيقية

ذكرتُ من قبل أن الزاد العلمي واللغوي هو الأساس، لكن غير كاف ما لم يصاحبه جهد كبير في التمرّن والتدريب.

ومن المناهج المشهورة اليوم في تعلم اللغات عموما، ما يسمىٰ: «التدريب بالانغماس»(١). وملخصه: أن ينغمس الطالب في اللغة التي يقصد إلىٰ تعلمها، فيمضي الساعات الطويلة في القراءة والتحدث والكتابة بهذه اللغة فحسب، ولا يلجأ إلىٰ لغته الأصلية التي يتقنه إلا في الضرورة القصوىٰ! فهو منهج يقطع مع تعليم قواعد اللغة وانفصال عن التمرّن التطبيقي عليها.

ويصل الأمر بعد هذا الانغماس التام في اللغة المراد تعلمها، إلىٰ حد التفكير بهذه اللغة. واعلم أن من المزالق الخطيرة التي يقع فيها المبتدئ، أن يفكّر بلغة ويعبر عن الفكرة ذاتها بلغة أخرىٰ. فيكون تعبيره لونا من الترجمة السخيفة التي تفتقر إلىٰ مبادئ

---

(١) «Formation par Immersion»، ويستعمل في غير اللغات أيضا، كما في مجال المعلوميات مثلا.

الفصاحة. ويقع هذا كثيرا مع العامية لغلبة استعمالها في تفصيلات الحياة اليومية المعتادة. فتجد الطالب عاجزا عن التعبير عن هذه التفصيلات باللسان الفصيح، بخلاف الأغراض العالية من غزل أو فخر أو حكمة أو ما أشبه ذلك، فإن التعبير عنها بالعربية الفصحىٰ لا يكون صعبا!

وينبغي أن يكون هذا التدريب بالانغماس تحت إرشاد مدرّبين متمكنين من اللغة، وحريصين علىٰ عدم استعمال لغة غيرها في التعليم[1]. وقد كان هذا المنهج مستعملا -إلىٰ حدٍّ بعيد- في الدراسات اللغوية التقليدية، فقد كان درس النحو أو الصرف أو البلاغة أو الأدب العربي يؤدَّىٰ بالفصحىٰ وحدها، ولا يُسمع لغيرها في هذه المجالس رِكز!

هذا المنهج إذن من أفضل ما يتبع لتعلم العربية[2]، ولكنه أيضا منهج صعب المنال، لما يتطلبه من تأطير حسن، وتفرغ في أوقات ممتدة. فإذا لم يمكن سلوكه، فلا أقلّ من الاستعاضة عنه بالاستماع الكثير لأهل الفصاحة، واجتناب مخالطة أهل العجمة والفهاهة.

---

(١) من آفات التعليم في مدارسنا: أن كثيرا من أساتذة العربية والفرنسية يستعملون العامية المغربية داخل الفصل، ولا يبقىٰ للُغةِ المدرَّسة غيرُ شرح المقررات! ومن ذلك أن بعض أساتذة الانجليزية يستعملون الفرنسية في التواصل مع تلامذتهم، وهلم جرا!

(٢) وبه يتعلم الأطفال لغتهم الأم، كما هو معلوم!

ولكن المشكلة أن المتكلمين الفصحاء في عصرنا مثل عنقاء مُغرب!

فلأجل ذلك، سأقترح فيما يلي، منهجا للتدرب علىٰ ممارسة اللغة، لا يُحتاج فيه إلىٰ أستاذ يرشِد، ولا إلىٰ بليغٍ يستمع إليه!

وقبل الشروع في المقصود، فليتأمل هذا النص النفيس الذي ينقله الجاحظ عن بشر بن المعتمر، ويقول فيه:

«خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك، فإن قليلَ تلك الساعة أكرمُ جوهرا، وأشرف حسبا، وأحسن في الأسماع، وأحلىٰ في الصدور، وأسلم من فاحش الأخطاء، وأجلب لكل عين وغُرّة، من لفظ شريف ومعنىٰ بديع. واعلم أن ذلك أجدىٰ عليك مما يعطيك يومُك الأطول، بالكد والمطاولة والمجاهدة، وبالتكلف والمعاودة»[1].

وهذا النص حقيق بالتدبّر -كما أسلفت- وجدير بالتطبيق.

فليحرص الطالب في جميع ما سيأتي -إن شاء الله- علىٰ اختيار الوقت الصالح للتدريب والممارسة اللغوية، وذلك شيءٌ يختلف باختلاف أحوال الناس.

ولن يحكّ جلدك في معرفة ذلك مثل ظفرك. فافهم!

---

(١) البيان والتبيين: ١/ ١٣٥.

المبحث الأول

التعبير الشفوي

في اللغات جميعها، تعدّ موهبة الحديث من أحسن المواهب اللغوية، التي يسعىٰ المتعلمون إلىٰ إتقانها. ويعدّ من يحسنها أفضل من غيره.

ولذلك تقرر عند الكثيرين أن من يُحسن الحديث يبدو في الغالب من أعراف الناس: أذكىٰ وأعلم وأجدر بالقيادة والتقديم علىٰ الآخرين، مع أن حقيقة الأمر قد تكون بخلاف ذلك كله. والمطلع علىٰ أحداث التاريخ، يوقن أن مصاقع الخطباء كانوا دائما -بحق أو بباطل- قادةَ الشعوب، ومحبوبي الجماهير!

وعند العرب خاصة، اقترنت الفصاحة بالمنطوق، وذلك لأن العربية في الأصل لغة شفهية، ولم تتحول إلىٰ لغة مكتوبة إلا بعد الإسلام بمدة زمنية معينة. ومن البدهي أن للتحدث والخطابة في اللغات الشفهية: المكان الأسمىٰ، والمرتبة العليا.

وأنت واجدٌ في كتب الأدب نُقولا كثيرة عن الخطابة والخطباء، وأبحاثا في أركان الخطبة وأحوال الخطيب، والعيوب

التي عليه أن يتقيَها، وتراجم فحول الخطباء، وما أشبه ذلك.

وجاء الإسلام فأكد هذا المعنىٰ، بالتحضيض علىٰ الخطبة يوم الجمعة والعيدين وفي موسم الحج، واشتهر في الإسلام خطباء كثيرون، وتناقلت كتب الأدب خطبهم. بل جاء في السنة النبوية تسمية البيان سحرا، كما في صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قدم رجلان من المشرق فخطبا فعجب الناس لبيانهما، فقال رسول الله ﷺ: «إن من البيان لسحرا».

ثم إن التعبير الشفوي ركن ركين في كثير من الوظائف الإسلامية السامية، كالوعظ، والدعوة إلىٰ الله، فردية كانت أو جماعية، وتدريس العلم الشرعي، وغير ذلك.

ولهذا كان علىٰ الطالب أن يعتني بهذا الباب كثيرا، ويبذل له من وقته وجهده، حتىٰ يحصّل منه ما ينفعه.

والذي يظهر لي -عن تجربة- أن الدربة علىٰ التعبير الشفوي تقوم علىٰ الأركان التالية:

- **الركن الأول: القراءة بصوت عال**

والغرض من ذلك ترويض اللسان والفكّين علىٰ النطق العربي الصحيح، واشتراك الأذن والعين في ذلك مع اللسان.

والمقترح أن يقرأ الطالب بصوت مرتفع، كلّ يوم صفحتين علىٰ الأقل، من مؤلَّف مكتوب بلسان عربي فصيح. ولتكن القراءة بطريقتين مختلفتين:

أولاهما: طريقة قراءة المتون، وميزتها الحرص علىٰ النطق بحركات أواخر الكلمات مطلقا، أي في حالتي الوقف والوصل معًا. وفائدتها مراجعة قواعد النحو، والتأكد من السلامة من اللحن.

والثانية: طريقة قراءة الخطباء والفصحاء، وهي الأصل عند العرب. وأساسها الوقف والوصل بحسب اختلاف المعاني، مع عدم الوقف علىٰ متحرك.

فإن رأىٰ الطالب أن هذين القراءتين مشوبتان بالحبسة والتتعتع، واحتاج إلىٰ قراءات أخرىٰ، فليفعل، حتىٰ يشعر بالكلام قد صار في لسانه هينا لينا، لا تكلف في نطقه، ولا عثرة تختبئ وراء بعض مفرداته!

وليكن له في هذا الباب، حظ من قراءة الشعر، ولا يكن مثل ذلك الفاضل الذي صارحني منذ سنوات بأنه إذا قرأ كتابا، جاوز ما يجده من أبيات شعرية، ليجتنب الإرهاق الذي يسببه له الشعر، لما فيه من الضرائر والألفاظ العسرة، والتراكيب المستغربة!

والمقترح من الكتب لهذه القراءة، بعضُ ما أوردت في مبحث الزاد الأدبي من كتب الأدب القديم خصوصا، ومما التحق بها من كتابات المعاصرين الحريصين علىٰ التعبير البليغ كالرافعي وأبي فهر ومَن أشبههما.

- **الركن الثاني: تقليد حديث الفصحاء**

والتقليد أول خطوة في طريق التعلم. وهو لا يعاب في ذاته،

فإن الطالب لا يمكنه أن يجتنبه في أوائل مسيرته التعليمية؛ بل الغالب على الطلبة تقليد أساتذتهم وشيوخهم. وإنما يعاب على من جاز المراحل الأولى في التعلّم، واستمرّ مع ذلك مقلدا لغيره.

ويفعل ذلك أمام مرآة، أو صديقٍ يكون له «جمهورا» دون أن يصدر منه تعليق أو إنكار! وقد ذكروا عن الخطيب اليوناني ديموستين أنه كان يذهب إلى شاطئ البحر ويخطب على هدير الموج كأنه أمام جمهور عظيم، حتى أتقن فن الخطابة. ومثل هذا مذكور عن بعض أئمة السلف رحمهم الله في تكرار دروس العلم.

ومما يساعد على إتقان الخطابة: حفظ بعض الخطب الفصيحة؛ ثم تناسيها، كما يذكر عن خالد بن عبد الله القسري أنه قال: «حفظني أبي ألف خطبة ثم قال لي: تناسها، فتناسيتها؛ فلم أرد بعد ذلك شيئا من الكلام إلا سهل علي». قال ابن طباطبا العلوي معلقا:

«فكان حفظه لتلك الخطب رياضة لفهمه، وتهذيبا لطبعه، وتلقيحا لذهنه، ومادة لفصاحته، وسببا لبلاغته ولسنه وخطابته»[1].

وربما من يقلّد في عصرنا من الفصحاء، فهذا شيء صعب الإدراك لكنه غير ممتنع.

وذلك لأن مجال الدعوة إلى الله -وهو أول ما تظهر فيه مواهب الخطابة في أمتنا الإسلامية- قد تلوّث باللهجات العامية،

---

(1) عيار الشعر (ت. عباس عبد الساتر): ١٦.

والرغبة في استرضاء الجماهير بمخاطبتهم بالسهل المبتذل، الذي يلائم أذواق العامة. وضاع في هذا الخضم: الأسلوب العربي الفصيح - إلا عند أفذاذ يعدون علىٰ رؤوس الأصابع!

فليحرص الطالب علىٰ هؤلاء حرص البخيل علىٰ ماله. والوسائلُ الحديثة كفيلة بتقريبهم إليه، فلا تبقىٰ له حجة يتمسك بها!

• الركن الثالث: الفصحىٰ في الأزمنة والأمكنة كلها

خرجت اللغة العربية الفصحىٰ من حياة الناس اليومية منذ زمن بعيد، وأخذت مكانَها العامية، التي هي عربية محرّفة، زيدت فيها مفردات وتراكيب من اللغات الأخرىٰ.

وأعداء الدين وخصوم العربية يبذلون جهودا ضخمة، ليخرجوا الفصحىٰ من مواقعها التي تحتلها اليوم، في الإعلام والتعليم والأدب وغير ذلك. والواجب علىٰ أهل الدين الغيورين علىٰ الفصحىٰ أن يقفوا أمام هذا المد الجارف.

ومن رأيي: أن الحرب إذا لم تدِرها في أرض العدو هجومًا، أوشك الحال بك أن تديرها في أرضك دفاعا. فاختر لنفسك أيهما بالنصر أليق!

وتطبيق هذه القاعدة في قضيتنا، ألا نكتفيَ بمقاومة العامية المكتسحة لمواقع العربية الراهنة، بل نهاجم العامية في «عقر دارها»، أي: في لغة التخاطب اليومي.

ولست بمؤملٍ أن تُمحىٰ العامية مطلقا وتحل الفصحىٰ بديلا

عنها، ولكنني أرجو أن يقتطع أهل الخير منها ما يقدرون عليه، ويهزموها في بعض المواقع، ويعود من ذلك الخير العميم علىٰ الأمة.

والذي أقترحه: أن يخصص الطالب -بين الفينة والأخرىٰ- وقتا يتعمد فيه أن لا يتحدث إلا باللسان الفصيح، في شؤون حياته جميعها.

ومن التجارب الطيبة النافعة: مبدأ «يوم دون عامية»، يتحدث المشاركون فيه بالفصحىٰ، في الصغير والكبير، بإشراف بعض المتخصصين. وفي ضمن ذلك، تحصل للمشارك فوائد جليلة، من تصحيح لحن أو تعريب لفظة أو تعلّم تركيب لغوي أو غير ذلك.

● الركن الرابع: تعلم محسنات الخطابة:

وهذا شيءٌ يعتني المؤلفون في أركان الخطابة وأصولها وعيوبها، ببيانه ووضع قواعده. وعلىٰ رأس هؤلاء في تراثنا الأدبي القديم: عمرو بن بحر الجاحظ في كتابه «البيان والتبيين». وفي كتب الأدب الأخرىٰ فوائد كثيرة في هذا المعنىٰ.

فمما ينبغي للمتحدث عموما وللخطيب خصوصا، أن يحرص عليه: الاستشهادُ بالأشعار والأقوال المأثورة، المتناثرة في التراث الأدبي الإسلامي والعالمي، فإنها تعطي الكلام وزنا، وقيمة زائدة. وطريقة تحصيل هذا: أنك متىٰ وجدت في قراءاتك بيتا فريدا

أو نقلا نافعا، فلتستعمله مع أصدقائك وأقاربك، فإن ذلك يرسخه في ذهنك، فتجده عند الحاجة.

وعلىٰ المتحدث أن يحرص أيضا علىٰ تنويع الكلام بحسب حال المخاطب، وذلك بالتدرب علىٰ طرق مختلفة في التعبير، من الوعظي والعلمي والفكري وغير ذلك. ولا يكن من الذين إذا جاوزوا مجال اختصاصهم، تبلّدوا، وأتوا بكل مرذول!

وعليه أن يتعلم التؤدة عند الحديث، والسكينة في الكلام، فإن الإسراع لا يأتي بخير. وقد رأيت من الناس من يسابق لسانُه ذهنه، فتراه يأتي بما لا معنىٰ له من التراكيب، لأن اللسان سابق، والذهن لا يقدر علىٰ مجاراته في إيجاد المفردات والتعابير الملائمة!

كما أن السكينة تعين علىٰ النطق الصحيح، وتخير اللفظ المليح!

وعليه أن يأخذ نفسه باجتناب الكلمات التي تتكرر في خطابه لغير فائدة، وإنما هي مما ألفه لسانه، فهو يملأ به هنيهات الصمت، ويستعين به علىٰ تكميل جُمَله. ولذلك سمّاها العتّابي «استعانة»، وجعلها من العيّ، فقال -فيما ينقله الجاحظ-:

«أما تراه إذا تحدّث قال عند مقاطع كلامه: يا هناه، ويا هذا، ويا هيه، واسمع مني واستمِع إليّ، وافهم عنّي، أوَلست تفهم، أوَلست تعقِلُ. فهذا كله وما أشبهه عيٌّ وفساد»[1].

---

(1) البيان والتبيين: ١/١١٣.

وليحذر غريب اللفظ وحوشيه، وغامض المعنىٰ ومرموزه، والإطالة في الحديث والخروج من موضوع لآخر لغير مناسبة تقتضيه، فإن الإطالة مذمومة علىٰ كل حال، ثقيلة علىٰ النفوس مع الإحسان والإتقان، فكيف مع الإساءة والرداءة؟!

والله الموفق.

المبحث الثاني

التعبير الكتابي

إن الملكة اللغوية تظهر أيضا في الكتابة. ومن كان علىٰ الحديث مقتدرا، لكنه في الكتابة عاجز، لم يكن معدودا ضمن أهل اللغة، الماهرين بها.

ثم إن المكتوب يبقىٰ ويستمر، حيث يفنىٰ المنطوق ويندثر! ولذلك فالعناية به ينبغي أن تكون أظهر وأكبر.

وليس المقصود بما سأذكره هنا: أن يصبح الطالب من فطاحل الكتاب، وجهابذة الأدباء، فإن بين يدي ذلك -إلىٰ جانب الجهد والتحصيل- وجود موهبة ربانية، لا يملك أحد أن يحصلها، وإنما غايته أن يصقلها ويحسن توجيهها. ولست أزعم أنك بالغٌ - إن شئت واجتهدت- مرتبةَ كبار الأدباء، كما يقوله بعض المتأثرين بأصول «التنمية البشرية»، بل أعرف أن من الناس من لا تكون الكتابة صنعته أبدا، ولو أنهك في ذلك جسده، وأفنىٰ عمره[1]!

وإنما المقصود تعلم الأصول العامة، وتحصيل الدربة الكافية

---

(1) البيان والتبيين: ١/ ١٣٨.

للتمكن من التعبير عن المعاني المختلفة بلسان عربي فصيح.

وهذا ممكن لآحاد الناس، لا يحتاج إلىٰ موهبة خاصة، وإنما مرجعه التعلّم والتدريب، لا غير.

وقبل أن أبسط لك بعض ما ينبغي سلوكه من الطرق لتحصيل هذه الدربة علىٰ الكتابة، فإنني أقدم لك توطئة يسيرة عن الألفاظ والمعاني.

فاعلم أنه قد اشتهر عند بعض من يجهلون حقائق الأمور من أهل عصرنا، أن أدباء العربية المتقدمين مقصّرون في جانب المعاني، مبالغون في العناية بالألفاظ. وقد حملهم هذا الجهل علىٰ إعادة النظر في أساليب الفصحاء جميعها، ونسف الراسخ الثابت منها لابتناء أساليب أخرىٰ صاروا يتعمدون أن يتأسوا فيها بآداب الغرب، ويرون هذه الآداب في المرتبة التي لا يُعلىٰ عليها، والمكانة التي لا يرام نظيرُها في آداب أمة أخرىٰ.

وهذه فرية لا أسّ لها، وعثرة لا لعا لها!

وقد كشف ابن الأثير هذه الشبهة بأجلىٰ بيان، ونبّه علىٰ السبب الذي من أجله اعتنىٰ أدباء العربية بالألفاظ أعظم عناية، فقال رحمه الله:

«اعلم أن العربَ كما كانت تعتني بالألفاظ فتصلحها وتهذبها، فإن المعاني أقوىٰ عندها، وأكرم عليها، وأشرف قدرا في نفوسها؛ فأولُ ذلك عنايتُها بألفاظها، لأنها لما كانت عنوانَ معانيها،

وطريقَها إلىٰ إظهار أغراضها أصلحوها وزينوها، وبالغوا في تحسينها، ليكون ذلك أوقع لها في النفس، وأذهب بها في الدلالة علىٰ القصد.

ألا ترىٰ أن الكلام إذا كان مسجوعا لَذَّ لسامعه، فحفظه؛ وإذا لم يكن مسجوعا لم يأنَس به أُنسَه في حالة السجع؟

فإذا رأيتَ العرب قد أصلحوا ألفاظهم، وحسّنوها، ورقّقوا حواشيها، وصقلوا أطرافها، فلا تظنَّ أن العناية إذ ذاك إنما هي بألفاظ فقط؛ بل هي خدمةٌ منهم للمعاني. ونظيرُ ذلك إبراز صورة الحسناء في الحلل المَوشِيّة، والأثواب المحَبَّرة، فإنا قد نجد من المعاني الفاخرة ما يشَوِّهُ من حُسنِه بَذاذةُ لفظه، وسوءُ العبارة عنه»[1].

وقد نقلت هذا الكلام بطوله، لنفاسته، وحسن سبكه. ومن أراد التمثيل وزيادة في البيان، فليرجع إلىٰ هذا الموضع من «المثل السائر» يستفدْ فوائد جمّة!

ثم إذا علم لديك هذا الأمر، فاحرص علىٰ المعاني الشريفة، ولا تستنكف أن تتخير للتعبير عنها ألذّ الألفاظ وأعظمها أثرا في الأسماع. ولا تلتفت لمن يعيب عليك العناية بانتقاء الألفاظ، وتحسين التراكيب، ويدعوك إلىٰ ترك ذلك لأجل المعاني؛ فإن هذا المذهب بهرجٌ لا ينطلي علىٰ الصيرفيّ الحاذق، الذي يعرف ما

---

(١) المثل السائر: ٢/ ٥٢-٥٣.

يستتر وراءه من الجهالات ودعوات الهدم.

ثم اعلم أن أغلبَ المعاني مطروقٌ متداول، وأن ابتداع المعاني الجديدة التي لم تطرق من قبل أمر عسير المطلب، وإن لم يكن محالا. وليس يعيب الكاتبَ أن يتناول المعنىٰ المعروف، فيعيد صياغته، ويختار له الملائم من الألفاظ، ويحسن تركيبه في سباقه ولحاقه.

فإن سمت همته إلىٰ اختراع المعاني، دون اقتداء بإمام سابق، ولا اتباع مثال مرسوم، فليفعل؛ ولا يغفل أن يكسو هذه المعاني التي يبتدعها أحلىٰ الألفاظ وأجملها، ليحسن زفافها إلىٰ القارئ، فتقع من نفسه في موقع القبول والرضا.

واعلم أنني سأضع بين يديك أربعة محاور للتمرّن علىٰ الكتابة، أرىٰ أنك إن أتقنتها فقد حصّلت المراد.

- **المحور الأول: مرتبة التقليد**

وهي المرتبة الأولىٰ التي لا مناص منها لكل مبتدئ في فن الكتابة. وملخصُها: أن يقلّد الطالب كبار الكتاب في القديم والحديث في أساليب كتابتهم، وطرائق تصرفاتهم في التعبير.

ومعرفة أسلوب الكاتب المعين، لا يكون إلا بعد قراءة الكثير من كتبه ومقالاته، دون خلطها بغيرها.

وعلىٰ هذا فالطريقة المقترحة: أن يعمد الطالب إلىٰ كاتب من كبار الأدباء، فيجمع نتاج يراعه في صعيد واحد، ثم يقرأه كله

نباعا، ولا ينتقل -خلال ذلك- لكاتب آخر. ويكرر من ذلك ما يرىٰ الحاجة ظاهرة إلىٰ تكراره، لأهمية أو غموض.

ثم يتأمل ما قرأه، ويجهد أن يعرف ما يميز هذا الكاتب عن غيره، في مفرداته وتعابيره، وفي طرائق استهلاله واختتامه، وفي أساليب تخلصه وانتقاله، وفي غير ذلك من وسائل التعبير.

ثم يعمد إلىٰ موضوع يشبه تلك الموضوعات التي يكتب فيها ذلك الكاتب، فيحاول أن يأتي بفقرة أو مقالة يحاكيه فيها[1]. وقد يقدم بين يدي ذلك، -إن عسر عليه التقليد في موضوعات مخالفة- أن يقرأ الفقرة من كلام الكاتب، ثم يغلق الكتاب، ويجهد أن يأتي بمعانيها، بأسلوبه هو؛ ثم يفتح الكتاب ويقارن بين صياغته وصياغة الأصل.

واعلم أن هذه المحاكاة لا تنجح إلا بعد جهد كبير، وتكرار كثير. فلا ييأس الطالب إن كانت محاولاته الأولىٰ ضعيفة ركيكة، وليستحضر أن الغرضَ الدربةُ فحسب، وأنه لا يُطلب منه أن يستقر علىٰ محاكاة هذا الأسلوب طول حياته الأدبية، فلا حرج عليه في عدم إتقانها.

والمقترح من الكُتاب هم الجامعون بين خصال ثلاثة:

- الإكثار: إذ يعسر تمييز الأسلوب من النتاج الأدبي القليل،

(1) تأمل بعض ما يكتبه عبد السلام هارون، تجد فيه نفسا جاحظيا، سرىٰ إليه من طول مخالطته كتب هذا الأديب. لكن أبىٰ الله أن يكون الفرع كالأصل.

• والإبداع: فرُبّ مكثر ليس له من جمال الأسلوب وبلاغة التعبير نصيب،

• والتميز: بأن يكون مستحدثا لأسلوب خاص، لا يشاركه غيره فيه.

وممن تتحقق فيهم هذه الخصال: الجاحظ وأبو حيان التوحيدي من المتقدمين، والرافعي والطنطاوي من العصريين.

وليحذر الطالب من تقليد أساليب المتأخرين في عصور الجمود الأدبي، كالقاضي الفاضل والصفدي وابن شداد ومن أشبههم، فإن أساليبهم -في الغالب- جعجعةٌ لفظية لا طائل وراءها.

واعلم أن هذا ليس خاصا بالأدباء، فقد يوجد المطلوب عند الفقهاء والأصوليين والمفسرين وغيرهم من العلماء أيضا. فمن أرباب الأساليب الرائقة من العلماء: الإمام الشافعي، وابن حزم، والجويني، والغزالي، وابن القيم، وغيرهم.

• المحور الثاني: الدربة علىٰ الاجتهاد

وهذه المرتبة أعلىٰ من التي سبقتها، لأنها تفتح للطالب أبواب الانعتاق من ربقة التقليد، والولوج إلىٰ عالم الاجتهاد في الكتابة.

ومدار هذا المحور علىٰ ثلاثة أمور، يجعلها ابن الأثير في «المثل السائر» أصولا للاجتهاد، مثل أصول الاجتهاد الفقهي.

١- حل الآيات القرآنية:

والمراد بذلك أن يؤخذ معنىٰ الآية، والألفاظ التي عليها مدارها، ثم يعاد سبك ذلك وصياغته في تعبير آخر، يزاد عليه ما هو من جنسه، حتىٰ تكتمل الفقرة من الكلام العربي الفصيح، المبني علىٰ أساس من القرآن حسن مليح.

ولا يأتي الكاتب هنا بلفظ الآية كاملا، فإن ذلك معدود عند البلاغيين من «التضمين» وهو مفيد نافع في تحسين الكلام، ولكنه ليس المقصود هنا في باب التدريب. وينبغي أيضا ألا يهجر ألفاظ الآية، ويلتمس مرادفاتها؛ فإن ألفاظ القرآن هي الأفصح والأكمل، واستبدالُ غيرها بها ركون إلىٰ الأدنىٰ مع وجود الأعلىٰ.

ومن الأمثلة التي تبين لك المراد، قولي في وصف أحد دعاة الضلالة:

«ثم طفق يخصف علىٰ سوأة بدعته من ورق السنّة، ليزينها للناظرين، حتىٰ إذا اطمأنوا إليه أجلب عليهم بخيل الشبهات ورَجلها».

ففي هذه الجملة، حل لثلاث آيات قرآنية مع سبكها في معنىٰ واحد. والآيات هي قوله تعالىٰ: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ . . . الآية [الأعراف: ٢٢]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ . . . الآية [الإسراء: ٦٤].

والذي يحفظ القرآن ويديم تلاوته وتدبر معانيه، يسهل عليه مثل هذا التذريب، فإن التعبير القرآني يكون ثابتا في جنانه، سابقا إلىٰ لسانه.

٢- حلّ الأحاديث النبوية:

والطريقة فيها كالطريقة المسلوكة في التي قبلها. والبلاغة النبوية من العلم الضروري الذي لا يحتاج إلىٰ استدلال. فالذي يعطر كتابته بعبق من شذاها الطيب، يكون قد أوفىٰ علىٰ الغاية التي ترام في مضمار الفصاحة والبلاغة.

ولا مانع من استعمال الأحاديث الضعيفة، فإن الفقهاء يتركونها مخافة أن يدخل في الدين ما ليس منه. أما نحن، فغرضنا التعبير لا الاحتجاج، فلا حرج علينا إن تساهلنا فيما شدّد فيه أهل الفقهيات.

ويزاد علىٰ الأحاديث المرفوعة: مشهورُ الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين، وغيرهم من أئمة السلف الصالح؛ فإن كلامهم سيد الكلام، وأعظم ما تتوفر الهمم علىٰ الاقتداء به.

ومن أمثلة هذه الطريقة قولي:

«فلما حمي الوطيس بين أهل الإسلام وأهل الإلحاد، أتىٰ أهل الخير إلىٰ العلماء يرجونهم لكشف الكربة عن المسلمين برد شبهات المعتدين، فكلهم يخاف علىٰ قلبه من اضطراب الفتن ويقول: «نفسي نفسي»، حتىٰ أتوا فلانا، فقال: «أنا لها، أنا لها»،

وأخذ من أدلة السنة البيضاء رمحا مثقفا، انتفض به انتفاضة، فتطاير عنه من حوله من المثبطين تطاير الشعراء عن ظهر البعير إذا انتفض بها، ثم ما زال يطعن به في صدر الملحد العنيد حتىٰ برد».

وفي هذه الفقرة حل لثلاثة أحاديث، أولها: قول رسول الله ﷺ في غزوة حنين: «الآن حمي الوطيس»؛ والثاني: حديث الشفاعة المعروف، وفيه طلب الناس الشفاعة من الأنبياء، حتىٰ وصلوا إلىٰ رسول الله ﷺ؛ والثالث: قصة قتل رسول الله ﷺ أبي بن خلف، كما هو مشهور في السيرة.

٣- حل الأبيات الشعرية:

وهذا من أفضل طرق التدريب علىٰ الكتابة النثرية، لأن الشعراء هم أرباب المعاني السامية التي تغطي مجالات مختلفة جدا. كما أن مجال الاجتهاد فيه أوسع من سابقَيه، لأن الطالب لا يكون فيه مقيدا بألفاظ الأصل، كما في التعامل مع نصوص الوحيين، وذلك لعدم امتناع القدرة علىٰ الإتيان بألفاظ هي خير مما اختاره الشاعر لأبياته؛ بل يكون ذلك ممكنا في أحايين كثيرة، بسبب لجوء الشاعر إلىٰ ألفاظ أكرهَه عليها ضيق الوزن، فيعدل عنها الناثر لشعره، وينتقي ما هو أحسن وأعظم أثرا.

ومما يسهّل حل الأبيات الشعرية، ما يقع في الأصل من اختلال في الترتيب، أو وقوع في حكم الضرورة الشعرية، أو تكسير للمعنىٰ علىٰ أبيات متعددة مع التزام بأحكام القافية، ونحو ذلك مما يضطر الشاعر إليه اضطرارا، فيتحلل الناثر منه، ويأتي بقطعة نثرية

عالية، يحتفظ فيها بالمعنىٰ ويتصرف في التعبير اللغوي عنه.

والأفضل أن يحلّ الطالب قصيدة كاملة، متكاملة المعاني، ولا يكتفي بالأبيات المتناثرة. فمن المقترح مثلا: سينية البحتري في وصف إيوان كسرىٰ، ورائية أبي تمام في رثاء الطوسي، وتائية أبي الحسن الأنباري في رثاء الوزير ابن بقية، ونونية ابن زيدون الغزلية، وعينية ابن زريق البغدادي، وما أشبه ذلك؛ حتىٰ يصل الأمر إلىٰ قصائد المعاصرين مثل بعض القصائد السائرة لشوقي وحافظ إبراهيم وخليل مطران والرصافي وميخائل نعيمة وعمر أبو ريشة وغيرهم.

• المحور الثالث: طرق بلاغية مهجورة

من مظاهر مرض اللغة العربية الفصحىٰ اليوم: أن الكتاب صاروا يتداولون أساليب محصورة، لا يجاوزونها إلىٰ غيرها. وفي ضمن هذا الانحسار الأسلوبي ضاعت طرق بلاغية فصيحة، وهجرها الناس حتىٰ صار صغار الطلبة يستغربونها إذا رأوها في النصوص الأصلية القديمة[1].

فمن المقاصد العظمىٰ: إعادة إحياء هذه الطرق البلاغية

---

(١) ومن هنا: تكلم بعض الجهلة بوجود «أخطاء لغوية» في القرآن الكريم، وذلك أن اللغة في عرف هذا المسكين هي ما يراه في كتابات المعاصرين، فما خالفها كان معدودا عنده من جملة الأخطاء! ونسي المسكين أن القرآن هو الأصل الأصيل في معرفة اللغة، وفي تمييز الصواب فيها من الغلط، لأنه أعلىٰ وأصح ما يكوّن المادة اللغوية التي تُستقىٰ القواعدُ منها. فكلامه قلب للميزان، لا معنىٰ للاشتغال بالرد عليه!

المهجورة عمليا، عن طريق التدرب علىٰ استعمالها ما أمكن؛ وعدم الاكتفاء بدراستها نظريا في كتب البلاغة والأدب والتفسير.

وإحياء هذه الطرق في الكتابة العصرية كفيل بربط الصلة بين المعاصرين واللسان العربي الأول.

فمن ذلك:

• الإخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ [فاطر: ٩]، وكقوله سبحانه: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج: ٣١].

• عكسه وهو: الإخبار عن المستقبل بالفعل الماضي، كقوله تعالىٰ: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [النمل: ٨٧].

• إظهار الاسم بعد الإتيان به مضمرا، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]. وقد كان القياس أن يقال: «وقالوا هذا ساحر كذاب»، ولكن للإظهار فائدة بلاغية.

• الالتفات وهو الانصراف من إحدىٰ الطرق من تكلم أو مخاطبة أو غيبة إلىٰ طريق آخر منها، كما في قوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾ [يونس: ٢٢].

• حذف بعض الجمل المفيدة لدلالة الكلام عليه، كما في

قوله تعالىٰ: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ [القصص: ١٢-١٣]. وتقدير الكلام بعد السؤال: «فقالوا: نعم، فدلتهم علىٰ امرأة -هي أمه- ترضعه لهم»، ثم يأتي: «فرددناه إلىٰ أمه».

فأين من الأدباء اليوم من يجرؤ علىٰ مثل هذه التعبيرات في كتابته؟

وعموما فإنه يدخل في هذا الباب جميع ما يسميه ابن جني في الخصائص: «شجاعة العربية»، من حذف وزيادة وتقديم وتأخير وغير ذلك.

• المحور الرابع: تعلم محسنات الكتابة:

وهي كثيرة أتىٰ علىٰ أغلبها المصنفون في علم البلاغة. ومما يحضرني منها خصوصا:

• تحسين المطلع، ليكون أول ما يراه القارئ حسنا رشيقا، يغريه بإكمال القراءة.

• تحسين الخاتمة، ليبقىٰ أثرها عالقا في ذهن القارئ، كما تبقىٰ حلاوة العسل في الذهن بعد انقضاء مادته من اللسان!

• تحسين أساليب الانتقال من معنىٰ لآخر، ومن موضوع لغيره، فلا يجد القارئ نفسه أمام قفزات مفاجئة تزعجه، وإنما يرىٰ الكلام يأخذ بعضه بحجزة بعضه الآخر، دون تكلف ولا اعتساف.

• استعمال الألفاظ الشريفة غير المبتذلة، دون أن تكون من الحوشي الغريب. واجتناب المفردات السخيفة أو المصادمة لمحاسن الأخلاق.

• الحرص علىٰ المعاني الراقية، وتوليد الأفكار الجديدة السامية، والحذر من المعاني الممجوجة التي يثقل وقعها علىٰ النفوس العظيمة لكثرة تكررها في كلام العامة.

واسمع نصيحة الجاحظ حين يقول:

«فالقصد في ذلك أن تجتنب السوقي والوحشيّ، ولا تجعل همك في تهذيب الألفاظ، وشغلك في التخلص إلىٰ غرائب المعاني. وفي الاقتصاد بلاغ، وفي التوسط مجانبة للوعورة»[1].

(١) البيان والتبيين: ١/ ٢٥٥.

المبحث الثالث

البحث والتحرير اللغوي

هذا المبحث من مكملات تحصيل الملكة اللغوية. والمقصود به ممارسة البحث اللغوي، وتحرير معاني الألفاظ الملتبسة، أوتحقيق ما قيل إنه من الأخطاء اللغوية، وبيان الصحيح من الغلط في ذلك، واقتراح المفردات والتراكيب الملائمة للمعاني المستجدة.

وكثير من الناس اليوم يجعل هذه الأبحاث من ضمن أصول تعلم اللغة. فتجده مثلا يحفظ الأخطاء الشائعة، ويعرف أسباب كونها خطأً، قبل التمكن من الزاد العلمي واللغوي والدربة التطبيقية، ويحسب أن تعلم العربية هو هذه المعرفة الفرعية.

وليس الأمر كذلك!

بل هذا البحث اللغوي لا يكون إلا بعد التمكن من المراحل السابقة جميعها، ولذلك تعمدت أن أثبته في آخرها. ومن أقدم عليه قبل التمكن، كان ما يفسده أكثر مما يصلحه.

ويدور البحث اللغوي علىٰ محاور كثيرة، أهمها ثلاثة:

- **معاني المفردات**

وهذا مما يظنه المبتدئ سهلا ميسورا، إذ يكفي -في نظره- فتح المعجم والبحث عن الكلمة المراد الكشف عنها، ثم قراءة المعنىٰ!

وإذا كان هذا صحيحا في لغات أخرىٰ، فليس هو بالصحيح في اللسان العربي، بل دون ذلك صعوبات:

منها: معرفة الجذر اللغوي للكلمة المراد الكشف عنها، لأن الطبيعة الاشتقاقية للغة العربية تقتضي ذلك. فالبحث مثلا عن كلمة «استخرج» يكون في مادة «خ ر ج»، وكلمة «قال» موجودة في مادة «ق ول»، وهلم جرا.

ومنها: معرفة طريقة البحث عن هذا الجذر، لاختلاف طرق ترتيب المعاجم. فمن المعاجم ما يرتب المواد اللغوية بحسب حرفها الأخير، ومنها ما يرتبها بحسب حرفها الأول. كما أن ترتيب الحروف قد يكون ألفبائيا، وقد يكون غير ذلك كترتيب حروف معجم «العين».

ومنها: اختيار المعنىٰ المراد من ضمن المعاني المختلفة التي يعرضها المعجم. وقد يكون بعض هذه المعاني من قبيل المجاز لا الحقيقة؛ وقد يكون معنىٰ اصطلاحيا لا المعنىٰ المراد في أصل اللغة؛ وقد يكون معنىٰ شاذا نقله بعض اللغويين المتخصصين في الجمع والتقميش، وإن كان غير مقبول عند الحريصين علىٰ اعتماد

الصحيح من اللغات؛ إلىٰ غير ذلك من الإشكالات المرتبطة بالمعنىٰ.

ومنها: الترجيح بين أقوال المعاجم عند التعارض، وعدم إمكان الجمع. بل قد يوجد التعارض في المعجم الواحد، كالذي يقع في «لسان العرب»، لأن مؤلفه ابن منظور بناه علىٰ خمسة كتب هي: «تهذيب اللغة» للأزهري، و«المحكم» لابن سيده، و«الصحاح» للجوهري، و«حاشية الصحاح» لابن بري، و«النهاية في غريب الحديث» لعز الدين بن الأثير. وهو ينقل منها بالنص، فلا بد من التنبه لذلك!

ومنها: معرفة مناهج المؤلفين في المعاجم، وحسن اختيار المعجم الملائم منها. فمنها ما هو شديد التساهل في إثبات الألفاظ ونسبتها للعربية، ومنها ما هو بعكسه، ومنها ما همّه تجميع غرائب اللغات، ومنها ما يعتني بالصحيح منها فقط، ومنها ما يعتني ببيان المعنىٰ الذي تدور عليه المادة اللغوية، إلىٰ غير ذلك.

فهذه عقبات كثيرة، لا بد من تجاوزها قبل الجزم بأن اللفظة الفلانية يراد بها المعنىٰ الفلاني في لغة العرب، أو -علىٰ الأقل- قبل حصول غلبة الظن بذلك.

وللأسف، فهذا كله يكاد يكون مهجورا عند الباحثين اليوم. فتجد الواحد منهم يصدّر كتابه بالتعريف اللغوي لبعض الاصطلاحات التي هي موضوع بحثه، ويكتفي بأن يملأ الصفحات بالنقول المختلفة عن المعاجم، دون أدنىٰ جهد في

تمحيصها أو تحرير الاختلافات بينها، وتزييف ما كان من ذلك باطلا، وتصحيح ما كان منه حقا، ثم تخليص المعنىٰ اللغوي المراد إثباته!

ولا ريب، أن هذه العقبات تلين في يد الباحث المتمرّس، الذي أفنىٰ وقتا طويلا في ممارسة البحث المعجمي، حتىٰ تصيرَ عنده كالعدم!

- صحة المفردات

والمراد بذلك التأكد من صحة مفردة لغوية جاءت علىٰ صيغة صرفية معينة. وأكثر ما يكون ذلك في الألفاظ المستحدثة لموافقة المخترعات العصرية، أو في الألفاظ الرائجة في الإعلام، أو في اللحن الدائر علىٰ ألسنة العامة.

وتحرير صحة هذه الألفاظ يقتضي إتقان قواعد فني الصرف والاشتقاق.

ومن الأمثلة علىٰ ذلك:

- الصحيح أن يقال: «عيد مبارَك» لا «مبروك»، لأن الفعل منه هو: «بارك فيه أو عليه»، فاسمُ المفعول منه «مبارَك»، أما «مبروك» فمن الفعل: «برك»، فتقول مثلا: «برك عليه البعير، فهو مبروك عليه»!

- والصحيح أن يقال: «الشريعة السمحة» لا «السمحاء»، لأن المذكر منها: «سمحٌ» وليس «أسمح»، فالمؤنث «سمحة» لا «سمحاء».

• والصحيح أن يقال: «واقع مَعيش» لا «مُعاش»، لأن اسم المفعول يصاغ من الفعل الثلاثي المعتل الوسط بالألف، بردها إلىٰ أصلها واوا أو ياء. فمثال الواوي: «مَقُول ومَلُوم»، ومثال اليائي: «مَبِيع ومَشِيد»، ومنه «معِيش».

وإنما أوردتُ هذه الأمثلة للتنبيه علىٰ أهمية قواعد علم الصرف في معرفة صحة المفردات اللغوية، أو تصحيح الأخطاء الشائعة.

• صحة التراكيب

وهذا أصعب لأنه يشمل ما سبق ويزيد عليه بأمور أخرىٰ كثيرة. والمقصود أن يقدر الطالب علىٰ مراجعة التركيب اللغوي، وتحليله بما تقتضيه قواعد العربية.

وأول ما يقتضيه هذا التحليل: التأكد من صحة المفردات.

ويشمل ذلك ما سبق في المحور الثاني، مع زيادة أمور أخرىٰ ينبغي التنبه لها، منها علىٰ سبيل التمثيل:

- المفردات التي تعرّب بها ألفاظٌ أجنبية، فتحمل معها حمولتها المعنوية من تلك اللغة، ويحدث بسبب ذلك بعض المفاسد. وأغلب ما يقع هذا في الألفاظ ذات المعاني الدينية في الأصل، كلفظ «الأيقونة» مثلا.

- المفردات الشرعية التي تستعار لترجمة ألفاظ أجنبية، فيقع اللبس بين المعنىٰ الشرعي والمعنىٰ الحادث. وذلك مثل ألفاظ:

النفاق والصلاة والرب ونحوها، حين توضع في مقابلة كلمات غربية ذات حمولة دينية أو اجتماعية مخالفة.

- المفردات التي تلتبس معانيها، فتستعمل في معنىٰ معين، والحال أن الواجب في اللغة استعمال لفظ آخر. وذلك مثل الخلط بين: نفِدَ ينفَدُ ونفَذَ ينفُذ، أو بين موجود ومتواجد.

ثم بعد ذلك ينظر في صحة التركيب بالنظر في أمور:

منها: الأخطاء في قواعد النحو، كالعبارة المشهورة عندنا: «لا تنسىٰ ذكر الله»، بإثبات حرف العلة مع أن مرادهم النهي لا النفي. أو كقول القائل: «سُرق كتابُ وقلمُ زيد»، والصحيح عند النحاة: «سرق كتاب زيد وقلمه»، لمنع تعدد المضاف[1].

ومنها: تعدية الفعل ومشتقاته بغير الحرف الصحيح في اللغة، كقول القائل: «تعوّدت علىٰ القراءة وتعرّفت علىٰ صديق جديد». والصحيح: «تعودت القراءة وتعرفت إلىٰ صديق جديد»[2].

ومنها: ما يكون سببه الترجمة الحرفية، نحو قولهم: «ممنوع التدخين» و«جاري التحميل». ومن ذلك «الكاف الاستعمارية»[3] كقول القائل: «أنا كمسلم لا أشرك بالله».

---

(١) في المسألة خلاف، فلينظر في تأويل قول الشاعر: «بين ذراعي وجبهة الأسد»، وكلام سيبويه والمبرد ومن جاء بعدهما.

(٢) وتصحيح مثل هذا باعتماد أسلوب تضمين الأفعال أو الحروف: ممكن!

(٣) كذا سماها الشيخ تقي الدين الهلالي -رحمه الله-.

ولا بد من ترك الاعتماد الكامل على الكتب المصنفة في الأخطاء الشائعة، إذ يقع لبعض المصنفين فيها غلو في التخطئة، أو تساهل في قبول ما لا يقبل في اللغة - كما سبق ذكره!

والسبيل في ضبط هذا كله: الممارسة الكثيرة، والتطبيق العملي.

الفصل الرابع

التمثيل ببعض الملَكات اللغوية الفرعية

المبحث الأول

ملكة الفهم الاستنباطي المستند إلى اللغة

وبحث هذه الملكة إلىٰ علم «أصول الفقه» أقرب، وذلك أن الأصوليين «سطَوا» عليها من ضمن ما سطوا عليه من المباحث اللغوية!

وفي هذا أستحضر كلمة السبكي حين قال:

«وكل هذه التعريفات للأصل بحسب اللغة، وإن كان أهل اللغة لم يذكروها في كتبهم. وهو مما ينبهنا علىٰ أن الأصوليين يتعرضون لأشياء لم يتعرض لها أهل اللغة»[1].

وإنما يتعرضون لهذه الأشياء، ويبحثونها ويطيلون النفَس في ذلك، لعظيم حاجتهم إليها.

---

(1) الإبهاج شرح المنهاج: ١/ ٢١.

ومن المعلوم أن علم أصول الفقه مستمد من ثلاثة أمور، منها: العربية[1].

والمقصود بهذه الملكة: القدرة علىٰ استنباط الحكم الشرعي من نص القرآن أو السنة، بقطع النظر عن الأدلة الأخرىٰ.

ولا بد هنا من التنبيه علىٰ أمرين:

الأول: أن ملكة الاستنباط غير ملكة الفهم، وإن كان بينهما عموم وخصوص مطلق، إذ لا يكون الاستنباط إلا بعد الفهم، لكن دون عكس. فقد يوجد الفهم ولا يكون المراد منه استنباط الأحكام؛ فمن الفهم ما يراد لتذوق الجمال فقط، أو لتأمل البلاغة، أو لدرك الإعجاز، أو نحو ذلك.

والثاني: أن عملية الاستنباط -كما يقررها الأصوليون- أشمل مما نحن بصدده. فالاستنباط الأصولي عملية متكاملة ينتظم فيها النظر فيما تقتضيه اللغة، مع مراجعة الأدلة الأصولية الأخرىٰ، والجمع أو الترجيح بينها، دون إغفال المقاصد والمصالح بمعناها الشرعي المعتبر.

ومما يمكن التمثيل به هنا: الحديث المشهور: «إذا كان الماء قلتين لم يحمل الخبث». فها هنا مراتب:

المرتبة الأولىٰ: الفهم اللغوي وهو قاصر علىٰ إثبات منطوق هذا اللفظ، وهو: أن الماء الذي بلغ قلتين أو تجاوزهما لا يحمل الخبث.

---

(١) والأمران الآخران هما: الأحكام الشرعية، وعلم الكلام.

والمرتبة الثانية: الفهم الاستنباطي وهو يزيد علىٰ المنطوق إدراكَ المفهوم، وهو: أن الماء الذي لم يبلغ القلتين يحمل الخبث؛ ويقرر إذن التفريق بمقتضىٰ اللغة بين حكم الماء القليل والكثير في الطهارة والنجاسة.

والمرتبة الثالثة: الاستنباط الأصولي، الذي يزيد علىٰ ما سبق بأمور كثيرة، منها: درجة الحديث صحة وضعفا، وتحرير الاختلاف في رواياته، وتصحيح معنىٰ القلة ومقدار القلتين، والنظر في معارضة الحديث لعموم حديث: «الماء طهور لا ينجسه شيء»، وتأمل مقاصد الشريعة في التيسير ورفع الحرج، إلىٰ غير ذلك.

إذا علم هذا، فإن تحصيل هذه الملكة يكون بأمرين اثنين:

• أولهما: دراسة المباحث اللغوية من علم أصول الفقه، وهي مباحث كثيرة بعضها مشترك مع علوم العربية، وبعضها مما يتفرد به الأصوليون.

فمن المشترك: حروف المعاني، والحقيقة والمجاز.

ومن مفردات الأصوليين: المنطوق والمفهوم، والعموم والخصوص، ودلالة الأمر.

وفي المشترك، يزيد الأصوليون مباحث ولطائف، لا توجد في كتب اللغة، لاختلاف جهة النظر في هذه المسائل(١).

---

(١) يقارن مثلا: مبحث «حروف المعاني» من شروح «جمع الجوامع» مع المبحث نفسه في «مغني اللبيب» وفروعه. ويقارن أيضا مبحث «الحقيقة والمجاز» بين الأصوليين والبلاغيين.

● والثاني: ممارسة الدربة علىٰ هذه الملكة.

وطريقة ذلك:

○ أن يعمد الطالب إلىٰ اختيار نص من القرآن الكريم أو الحديث النبوي. وليكن ذلك من آيات الأحكام أو أحاديثها، وهي محصورة معروفة[1].

○ ثم يفهم ألفاظه ومعانيها الإجمالية، بالاستناد إلىٰ تفسير مختصر، مثل: «التفسير الميسر» أو كتاب من شروح الحديث سهل العبارة، لا يخوض في التفصيلات الفقهية.

○ ثم يشرع في التحليل اللغوي الاستنباطي للنص لفظا لفظا، وجملة جملة، بما يشبه صنيع المعْرِبين إذا قصدوا إلىٰ إعراب جملة ما.

مثال ذلك في تحليل قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]، يمكن النظر في أمور:

١- هل لكون الخطاب للمؤمنين مفهوم مخالفة، فيكون غيرُهم غيرَ مخاطب بهذه الفروع؟

٢- ما مفهوم الحصر المستفاد من «إنما»؟

---

(١) مظانها كتب «أحكام القرآن»، ككتاب ابن العربي المالكي والجصاص الحنفي وغيرهما؛ وكتب أحاديث الأحكام، كعمدة الأحكام وبلوغ المرام ومنتقىٰ الأخبار وغيرها.

٣- ما الذي يفيده استعمال الجملة الاسمية في الآية؟

٤- أي شيء يستفاد من دلالة الاقتران في الآية (اقتران الخمر بالميسر والأنصاب والأزلام)؟

٥- ما دلالة اسم الجنس المعرف بأل: الخمر والميسر؟ وما دلالة الجمع المعرف بأل: الأنصاب والأزلام؟

٦- ما دلالة تنكير «رجس»؟

٧- ما المعنىٰ الذي تفيده «من» في قوله تعالىٰ: «من عمل الشيطان»؟

٨- ما دلالة الأمر في «فاجتنبوه»؟

٩- ما المعنىٰ اللغوي للفظ «الاجتناب»؟

١٠- ما المعنىٰ المراد من لفظ «لعلّ»؟

فهذه بعض المباحث المختلفة التي يمكن للناظر في الآية أن يحررها، فيحتفظ منها بما يثبت لديه بالبرهان اللغوي المعتبر، ويطرح ما سواه.

ويمكنه أن يستعين علىٰ هذا التحرير، بمقارنة تحليله اللغوي بما يذكره أصحاب التفاسير أو شروح الحديث التفصيلية.

وعند هذه الغاية ينتهي دور ملكة اللغة، ويبدأ عمل الأصولي الذي يصحح ويزيف، بحسب ما لديه من عدة أصولية متكاملة.

المبحث الثاني

ملكة تحديد السياق الزماني للنص اللغوي

ذكرتُ آنفا أن اللغة العربية تطورت خلال قرون حياتها الطويلة، ودخلت عليها تغييرات كثيرة، في طرائق التعبير. وعرف تاريخ الفصحىٰ مراحل متباينة في ألفاظها وأساليبها، يمكن للمتمرّس بآداب العربية أن يميز بينها.

فتأمل مثلا قول أعرابي لسليمان بن عبد الملك: «إنه قد اكتنفك رِجَالٌ أساءوا الاختيارَ لأنفسهم، وابتاعوا دُنْيَاك بدينهم، ورضاك بسَخطِ ربهم، وخافوك في الله ولم يخافوا الله فيك، فهم حرب للآخرة، وسَلْم للدنيا، فلا تأمَنْهم علىٰ ما ائتمنك الله عليه؛ فإنهم لم يَألُوا الأمانةَ تضييعا، والأمة كسفا وخَسفا، وأنت مسؤول عما اجترموا، وليسوا مسؤولين عما اجترمت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك، فإن أعظم الناس عند الله غبنا من باع آخرته بدنيا غيره».

وتأمل بعده قول ضياء الدين بن الأثير في وصف غبار الحرب: «وعقد العجاج سقفا فانعقد، وأرانا كيف رفع السماء بغير

عمد، غير أنها سماء بنيت بسنابك الجياد، وزينت بنجوم الصعاد، ففيها ما يوعد من المنايا لا ما يوعد من الأرزاق، ومنها تقذف شياطين الحرب لا شياطين الاستراق».

ثم تأمل أخيرا قول أحمد أمين في مقالة «الذوق العام» من «فيض الخاطر»: «وهذا الذوق العام للأمة يستبدّ بالأفراد استبدادا لا حدّ له، فالناس جميعا خاضعون لأنواع شتىٰ من الاستبداد، كاستبداد النظم السياسية، واستبداد العقول، واستبداد الرؤساء، ولكن هذه كلها محدودة الدائرة».

ألست تجد هذا التفاوت الظاهر في التعبير، بين هذه النصوص المختلفة؟

لذلك فإن من الملكات اللغوية التي يعظُم نفعها: ملكة معرفة السياق الزمني لنص لغوي معين.

ومن فوائد هذه الملكة دفع نسبة بعض النصوص إلىٰ من تعزىٰ إليه علىٰ سبيل الغلط.

ومن المثال علىٰ ذلك ما يروىٰ أن علي بن أبي طالب دخل علىٰ فاطمة ﵄، فرآها تستاك فقال:

هُنِّيتَ يا عود الأراكِ بثغرها
ما خفتَ مني أراكُ أراكا؟
لو كان غيرُك يا سواكُ قتلتهُ
ما فرّ مني يا سِواكُ سِواكا!

والحق أن هذا مما يبعد جدا أن يكون من شعر علي بن أبي طالب ﷺ، بل ما فيه من الصنعة اللفظية البديعية تجعله إلىٰ شعر المتأخرين أقرب. وقد نُسب إلىٰ علي ﷺ ما لا يحصىٰ من الأشعار والحكم المنثورة.

ومن الأمثلة أيضا: ما يُنسب إلىٰ الإمام أبي حنيفة رحمه الله، في مناظرة بعض الملحدين، وهي طويلة وتبدأ بسؤالهم: «في أي سنة ولد ربّك؟». وما فيها من الألفاظ والاستدلالات، لا يناسب القرن الثاني الهجري الذي عاش فيه الإمام رحمه الله!

ومعرفة السياق الزمني للنص، تكون بأمور كثيرة، تعرف بالممارسة وإدمان النظر، منها علىٰ غير سبيل الحصر:

- تمييز الخصائص الأسلوبية،
- وجود شواهد الحضارة المختلفة، مثل ذكر «المصابيح الكهربائية» في العصر الحديث، أو «النيروز»[1] في العصر العباسي، وغير ذلك،
- وجود الألفاظ الشرعية التي جاء بها الإسلام، ولم تكن موجودة في العصر الجاهلي،
- وجود المصطلحات العلمية الحادثة، مثل الألفاظ الفلسفية أو المنطقية أو النحوية أو الفقهية، أو غير ذلك،

---

(١) في «تاج العروس» (١٥/ ٣٤٩)، عقل عن عَبَثِ الوَليد للمَعَريِّ قوله: «النَّيروز: فارسي مُعرَّب، ولم يُستعمَلْ إلّا في دولة بني العبّاس، فعند ذلك ذَكَرَتْه الشعراء ...».

• الإشارة إلىٰ الأحداث التاريخية أو إلىٰ بعض الأشخاص المشهورين، مما يدل علىٰ أن النص اللغوي مكتوب بعد ذلك.

ولكن ينبغي التنبه في باب مقارنة الخصائص الأسلوبية، إلىٰ أن بعض الأدباء قد يتعمد أن يكتب بأسلوب مرحلة زمنية سابقة، لغرض من الأغراض، كما تجد ذلك مثلا في المقالات التي كتبها أبو فهر محمود شاكر، واختار لها عنوان: «من مذكرات عمر بن أبي ربيعة»[1]، فإنها من أبعد ما يكون عن أساليب عصرنا الحديث. فاقرأها بتدبر، تفهم المراد!

ومما يدخل في التنبيه، أنك قد تصادف في كلام بعض المتقدمين، شيئا من الصناعة اللفظية خاصة السجع، فلا يجعلك ذلك تسرع إلىٰ نسبة النص إلىٰ المتأخرين، فإن الذي يميز المتأخرين إنما هو الإكثار من هذه الصناعة، أما أصل استعمالها -دون إكثار ولا تكلف- فلا يستغرب من الأولين.

ومعرفة هذا من ذاك لا تدرك إلا بكثرة المران!

ومما يلحق بهذه الملكة: معرفة السياق المكاني للنص الأدبي أيضا.

فأدب الشيح والقيصوم والظعن والقوافل، غير أدب الآس والياسمين والقصور والمرمر وبرك الماء!

---

(١) متناثرة في مجموع مقالاته.

ولذلك فنصوص الشعر والنثر النجدية، غير النصوص الأندلسية والبغدادية؛

وأدب مصر في عصر النهضة، غير أدب لبنان والمهجر؛ وهلم جرا.

ويدخل أيضا تمييز أدب الفقهاء والعلماء، من أدب الشعراء والأدباء، الذين صناعتهم الأدب. فللمصطلح العلمي أثر بيّن في النتاج الأدبي، لا تخطئه عينُ المتمرّس.

المبحث الثالث

ملكة الربط بين المعنى والإعراب النحوي

يطلق الإعراب ويراد به النحو، ويطلق علىٰ ما يقابل البناء، ويطلق علىٰ تحليل الكلام نحويا. يقول الخضري: «ويطلق (أي: الإعراب) علىٰ تطبيق الكلام علىٰ قواعد العربية (. .) ومنه قولهم: «أعرب (جاء زيد)»، وهذا الإطلاق اصطلاحي أيضا»[1].

وهذا المعنىٰ الثالث هو المقصود هنا.

ومرادي بهذه الملكة: القدرة علىٰ أمرين اثنين:

أولهما: فهم المعنىٰ المراد من الكلام انطلاقا من إعراب بعض شراحه. كأن تقرأ قوله تعالىٰ: ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَـٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ﴾ [يوسف: ٦٥]، وتقرأ للمفسرين اختلافا في إعراب «ما»، بين قائل: إنها استفهامية، وقائل: إنها نافية، وما ينبني علىٰ ذلك من النظر في معنىٰ «نبغي»؛ فتفهم ذلك كله حق الفهم، ولا يتلجلج شيء منه في صدرك!

ومثال آخر من شرح حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه

---

(١) حاشية الخضري علىٰ شرح ابن عقيل: ١/ ٣١.

قال: «لا يبولنَّ أحدُكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل».

قال الصنعاني في «سبل السلام»: «روي برفع اللام علىٰ أنه خبر لمبتدأ محذوف: أي ثم هو يغتسل، وقد جوّز جزمه علىٰ عطفه علىٰ موضع يبولن، ونصبه بتقدير «أن» علىٰ إلحاق ثم بالواو في ذلك، وإن أفاد أن النهي إنما هو عن الجمع بين البول والاغتسال، دون إفراد أحدهما، مع أنه ينهىٰ عن البول فيه مطلقا، فإنه لا يخلّ بجواز النصب؛ لأنه يستفاد من هذا النهي عن الجمع، ومن غيره النهي عن إفراد البول وإفراد الاغتسال. إلخ»[1].

فتأمل هذا الكلام، وراجع تتمته في كتاب الصنعاني، لتعلم أن هذه الملكة من أهم الملكات، وأكثرها فائدة لمن يتعامل مع كتب أهل العلم المتقدمين.

وخُذْ مثالا ثالثا من معلقة امرئ القيس عند قوله: «وقوفًا بها صَحْبي عليَّ مَطِيَّهُم»، وراجع الشروح لإعراب هذا الشطر، خاصة الكلمة الأولىٰ والأخيرة، توقنْ أن الإعراب مطية الفهم، وأن القدرة علىٰ إدراك طرائق المُعربين معينة حق الإعانة علىٰ إدراك المعاني المرادة.

وقد قصدتُ من الأمثلة الثلاثة السابقة أن أبين هذا الأمر الأول في القرآن والسنة والشعر. ولا شك أن صناعة الإعراب وأثرها في تفهم المعاني، مما يكثر جدا في كتب التفسير وتوجيه

(١) سبل السلام: ١/١٩-٢٠.

القراءات، ثم في شروح الحديث النبوي وشروح الشعر العربي القديم.

ثم إن هذا الأمر يكثر أيضا في شروح المتون العلمية والحواشي عليها، وقد تفنن المتأخرون فيه، حتىٰ إن الجاهل بصناعة النحو يعسر عليه أن يتعامل مع هذه المؤلفات.

والأمر الثاني: القدرةُ علىٰ التعبير عن المعاني المختلفة باستعمال اصطلاحات صناعة الإعراب. وهذا مما يحتاج إليه كثيرا في كلام الناس، ويسلكون لتفهيم المعاني مسالك مطولة، بإعادة الجملة وإدخال كثير من الحشو فيها، بدلا من التفهيم عن طريق الإعراب، وهو أيسر سبيلا، وأدق تعبيرا!

وتأمل مثلا لو أن قائلا قال: «إن قراءةَ المؤلفات النافعةَ للطالب القراءةُ التدبرية!» فنصب «النافعةَ»، فسأله سائل عن سبب ذلك لِتبادر ذهنه إلىٰ جرّها، فأي الجوابين أقصر وأدق:

أن يقول: لأن مقصودي أن القراءة هي الموصوفة بكونها نافعة، وليس مرادي أن أصف المؤلفات بكونها نافعة،

أم أن يقول: «النافعة» نعت لـ«قراءة»؟

وكثير من أهل عصرنا لا يعرفون غير الطريقة الأولىٰ في تفهيم المخاطب ما يقصدونه من المعاني. والأمثلة أكثر من أن تحصر.

بل إن كثيرا من طلبة النحو قد يعرف الإعراب ولا يعرف المعنىٰ اللازم منه، أو يعرف التمييز بين معنيين مختلفين ولا يستطيع

التعبير عن ذلك بألفاظ النحاة! وهذا أيضا مشاهد معروف.

والسبيل إلىٰ تحصيل هذه الملكة إنما هو بالممارسة العملية، سواء أكان ذلك بقراءة المصنفات التي تعتني بالإعراب، مثل كتب التفسير المعتنية بجوانب اللغة كالبحر المحيط وروح المعاني ونحوهما؛ أو كان بتعمد التعبير عن المعاني بالاصطلاح الإعرابي.

ومن المباحث الإعرابية التي تكثر الحاجة إليها في هذا الباب:

• تعيين متعلق الجار والمجرور، كقولك مثلا: «هاتفني رجل من فلسطين»، فإنك إن جعلت الجار والمجرور متعلقا بالفعل «هاتف» كان المراد أن الاتصال وارد من فلسطين، سواء أكان الرجل من أهلها أم من غير أهلها لكنه قاطن بها؛ وإن جعلته متعلقا بالفاعل «رجل»، كان المراد أن الرجل من أهل فلسطين، وليس في العبارة أن اتصاله وارد من فلسطين أم من غيرها، فقد يكون فلسطينيا متصلا من مصر مثلا. فانظر إلىٰ اختصار الكلام وتيسره، باستعمال هذا المصطلح النحوي.

• تمييز المبتدإ من الخبر إنما يرجع إلىٰ المعنىٰ. فالذي يكون معلوما للمخاطب قبل سوق الكلام، ويراد «الحكم عليه»، هو المبتدأ؛ متقدما كان أو متأخرا. وما كان مجهولا للمخاطب يراد «الحكم به»، فهو الخبر. فإن عُدمت القرينة المعنوية، فالمتقدم هو المبتدأ والمتأخر هو الخبر، ويكون الترتيب دالا علىٰ التمييز بينهما.

فلو أردت أن تخبر مخاطبك بأن ذلك الشخص الذي اسمه «زيد» -وهو معروف لديه- صديقٌ له، قلتَ مثلا: «زيدٌ صديقُك»، علىٰ أن يكون المبتدأ هو «زيد» والخبر هو «صديقك»، فتكون حاكما علىٰ زيد بالصداقة للمخاطب.

ولو كان المخاطب يعرف صديقا من أصدقائه، لكنه لا يعرف اسمه، وأردت إخباره باسمه لقلتَ: «صديقك زيدٌ» قاصدا أن يكون المبتدأ هو: «صديقك» والخبر هو «زيد»، فتكون حاكما علىٰ صديق المخاطب بأنه زيد.

وفي الصورتين معا، لا يصح عكس الترتيب إلا أن توجد قرينة تدل علىٰ تقديم الخبر.

وهذا التفصيلات المعنوية المحتاجة إلىٰ شرح كبير، يستغنىٰ عنها بتعيين المبتدإ والخبر، وفق ما تقتضيه صناعة الإعراب!

• التمييز بين من التبعيضية والبيانية، كقولك مثلا: «اهجر المحرّم من الخمر». فإن «من» هنا بيانية ولا يصح أن تكون تبعيضية، فالخمر كله حرام، وليس شيء منه مباحا.

• تعيين المعطوف عليه من احتمالات مختلفة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ [يونس: ٧١]. قد قرئ «شركاءكم» بالرفع والنصب. وتوجيه الرفع: العطفُ علىٰ الضمير المرفوع المتصل في «فأجمعوا»(١)، والتقدير: «فأجمعوا أنتم وشركاؤكم

(١) وجاز من غير تأكيد بالمنفصل لطول الكلام.

أمرَكم»؛ وتوجيه النصب: العطف علىٰ «أمركم»، أي: «أجمعوا أمركم وأجمعوا شركاءكم». وهنالك توجيهات أخرىٰ للقراءتين.

وهنالك مباحث أخرىٰ كثيرة من هذا النوع.

المبحث الرابع

ملكة تحليل المادة اللغوية باعتماد القواعد البلاغية

وهذه الملكة تشبه التي قبلها، إلا أن تلك في النحو وهذه في البلاغة!

ومن المعلوم أن الكلام البليغ يشتمل علىٰ كثير من الظواهر البلاغية، التي تفنن علماء البلاغة في وصفها، ووضع الاصطلاحات الخاصة بها، وتمييزها بالقواعد والضوابط الجامعة. والكلام إذا علا في مراقي البلاغة، كثرت هذه الظواهر فيه، وانتشرت في أنحائه، حتىٰ ما يحول دون تصيدها غير الجهل بهذا الفن، أو قلة الممارسة له!

ولذلك كان للقرآن من هذا المعنىٰ القدحُ المعلّىٰ، وكان استخراج «بلاغيات» الذكر الحكيم مما يتنافس المفسرون في إظهار البراعة فيه. بل ما نشأ علم البلاغة إلا من رحم علم الإعجاز القرآني، كما سبق التنبيه عليه.

وإذا كان الأمر كذلك -وهو كذلك دون ريب- فإن من المتعين علىٰ طالب الملكة اللغوية، أن يحرص أشد ما يكون الحرص علىٰ التمرس بوصف المادة اللغوية البليغة، باستعمال

أصول علم البلاغة، أو بعبارة أخرىٰ: تنزيل الاصطلاحات والقواعد والفروق البلاغية علىٰ المادة اللغوية.

وإنما كان هذا التنزيل ملكة من الملكات اللغوية الفرعية، لأن حدّ الملكة متحقق فيه. فالعلم بقواعد علم البلاغة واصطلاحاتها لا يكفي لتحصيل القدرة علىٰ تطبيق ذلك علىٰ نصوص اللغة. وقد عرفنا طلبة علم كثيرين، قد أتقنوا هذا العلم، وبلغوا من دراسته الغاية التي لا يكاد يرام أكثرُ منها، لكنهم عاجزون أتمّ العجز عن تطبيق ذلك علىٰ الكلام البليغ، سواء أكان ذلك من جهة الفهم الحسن لمن يشرحه باعتماد الاصطلاح البلاغي، أو كان من جهة القدرة علىٰ وصفه وتحليله بلاغيا؛ فضلا عن القدرة علىٰ الإتيان بمثله!

وهذا النقص الشديد في الممارسة والتطبيق يناقض المعنىٰ الذي من أجله وضع هذا العلم، إذ أهم شيء في البلاغة هو التطبيق لا التنظير المجرد:

«وعلينا أن نذكر أن التطبيقات في الدرس البلاغي ليست أمرا هينا، لأنها هي حياته ونماؤه، وتتركز فيها قدرة البليغ ومهارته، فقواعد البلاغة وأصولها يمكن أن تجمع في صفحات، والمهم هو التطبيق والنظر المتثبت في النص المدروس، وتحليل تركيبه، وإبراز محاسن صياغته، ودلالات خصوصياته. والذي يعين علىٰ ذلك الحس المرهف، والذوق المتمرس البصير..»[1].

---

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، لمحمد حسنين أبو موسىٰ: ٥-٦.

والمقصود بهذه الملكة أمران اثنان:

أولهما: القدرةُ علىٰ فهم كلام المفسرين وشراح الحديث والأدب العربي، حين يستعملون الأداة البلاغية لتحليل ما هم بصدد شرحه وبيانه، دون حاجة إلىٰ الرجوع إلىٰ كتب الفن لسؤالها عن المراد بهذا، والفرق بينه وبين ذاك!

وإذا أردت أن تشعر بأهمية هذه القدرة التي يَعدمها الكثير من الطلبة اليوم، فلتفتح كتابا مثل «التحرير والتنوير» لابن عاشور، أو «روح المعاني» للألوسي، بل لتفتح مثل «فتح الباري» لابن حجر العسقلاني، ثم اقرأ فيه وانظر إلىٰ الصعوبات الكثيرة التي تواجهك عند محاولة فهم كلام هؤلاء الأفذاذ، بسبب كثرة استعمالهم للمصطلح البلاغي الذي يحتاج إلىٰ تفهم ودربة!

والأمر الثاني: القدرة علىٰ تحليل أي نص لغوي، باستعمال مصطلحات البلاغيين.

ومثال ذلك: أنك تقف علىٰ قول المتنبي يخاطب سيف الدولة:

ألا أيها السيف الذي ليس مغمدًا
ولا فيه مرتاب ولا منه عاصم

فتقول: هذه استعارة تصريحية أصلية في «السيف»، والقرينة «النداء»، و«ليس مغمدا» ترشيح.

أو تقرأ قول أبي تمام:

يمدون من أيد عواص عواصم
تصول بأسياف قواض قواضب

فتقول: في البيت جناس غير تام في موضعين.

وأنت في هذا -وما يشبهه- تستغني بذكر هذه المصطلحات اليسيرة في لفظها، عن التحليل التفصيلي لكلام الشاعر، وإرجاعه إلىٰ أصوله الأولىٰ.

والمصطلحات البلاغية ما كانت كثيرة، إلا لتهبَ العارف بها الاقتدار علىٰ وصف المعاني المختلفة بأيسر عبارة!

وأكثر ما يحتاج إليه من ذلك التشبيهُ وفروعه الكثيرة، لكثرته في كلام العرب عموما. قال العلامة ابن عاشور:

«وكان للتشبيه والاستعارة عند القوم المكان القصي والقدر العلي في باب البلاغة، وبه فاق امرؤ القيس ونبهت سمعته، وقد جاء في القرآن من التشبيه والاستعارة ما أعجز العرب كقوله ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ وقوله ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ [الاسراء: ٢٤] وقوله ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يٓس: ٣٧] وقوله تعالىٰ ﴿ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ [هود: ٤٤] وقوله ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٨] إلىٰ غير ذلك»[(١)].

ثم يأتي بعده المحسنات اللفظية والمعنوية، التي يعتني علم البديع بدرسها، وذلك لانتشارها في النصوص الأدبية للمتأخرين من أهل الكتابة والأدب.

ثم سائر مباحث البلاغة.

---

(١) التحرير والتنوير: ١/١٠٧.

المبحث الخامس

ملكة التعبير اللغوي السليم عن المعاني الحادثة

يحدث للناس من المعاني التي يراد التعبير عنها، بقدر ما يحدثون من ألوان الحضارة، وصنوف المعرفة، وأنواع المخالطة للأمم.

والمقصود بهذه الملكة: القدرة علىٰ التعبير عن هذه المعاني، بلسان عربي فصيح، بعيد عن هجنة العصر الحديث، الذي تختلط فيه اللغات، فتقبح الأساليب والمفردات.

وهذا شامل لأمرين: التراكيب والألفاظ.

فأما التراكيب، فإن العصر الحديث عرف بروز كثير من التعبيرات الجديدة، التي لم تكن معروفة من قبل. وأغلبها جاء من ترجمة الكتب والمقالات والأبحاث التي تنتجها المكتبة الغربية.

ولا شك أن من هذه الترجمات ما هو صحيح فصيح، لا غبار عليه.

لكن منها ما يأتي به ضعفة المترجمين، الذي يكون همّ الواحد منهم أن يأتي بأيّ مقابل عربي للنص الذي يترجمه،

ولا يهتم لأصول العربية في النحو والصرف والاشتقاق وغيرها.

ولذلك انتشرت في هذا العصر تعبيرات ركيكة، لا تراعي قواعد التعبير العربي البليغ، كقول قائلهم مثلا: جاري التنزيل، وممنوع التدخين، ونحو ذلك.

وأما الألفاظ، فإن ما يجدّ في الحضارة الغربية الحديثة كبير جدا، والمجامعُ اللغوية عاجزة عن مواكبة هذا الفيض الاصطلاحي الوافد. ولذلك فمن الواجب أن يهرع محبو العربية من عموم الكتّاب إلىٰ وضع الألفاظ المستحسنة الملائمة، ولا ينتظروا اتفاق مجامع اللغة عليها. فإن نكصوا عن فعل هذا الواجب، تركوا الحلبة لضعاف الإعلاميين المتغربين، يسرحون فيها أنىٰ أرادوا!

ولأجل ذلك كان تحصيل هذه الملكة في غاية الخطورة والأهمية.

ومن المناسب التنبيه علىٰ أنه لا يلزم الإتيان بلفظ عربي أصيل لكل مصطلح أعجمي حديث، بل يمكن تعريب الألفاظ الأجنبية، مع إخضاعها لقواعد الصرف والاشتقاق العربية.

وعلىٰ هذا مضىٰ عمل المتقدمين من أئمتنا رحمهم الله.

الخاتمة

سعيت في هذا الكتاب إلىٰ أن أقترح ما يعين علىٰ تكوين الملكة اللغوية، منطلقا في ذلك من تجربتي الشخصية أولا، ومن كلام اللغويين والأدباء والعلماء، في القديم والحديث.

وقد بذلت جهدي في الدلالة علىٰ الطريق الذي أراه موصلا إلىٰ المطلوب بإذن الله تعالىٰ. ولكنني مع ذلك مقرٌّ بأن الخطأ وارد في ما دبجه يراعي، لعجزي وجهلي وتقصيري، ولأن هذه المباحث اجتهادية في أغلبها، ولا يخلو اجتهاد من غلط!

لكنني إن أخطأت وظفرت -مع ذلك- بأجر المجتهد المخطئ، كفاني ذلك وأغناني، وكان لآلام نفسي بلسما شافيا!

ثم إنني أرجو أن يكون هذا الكتاب خرزة في عقد طويل أرجو أن ييسر الله لي أن أنظم فيه أصول الدفاع عن اللغة العربية الفصحىٰ، في هذا الزمان الذي كثر فيه أعداؤها، واشتد لغطهم، واستكان فيه أنصارها، ورضوا بأن يكونوا مع الخوالف، إلا فئة يسيرة من الغيورين، لا تزال تكافح في هذه الحلبة، ترجو بذلك أن تنال شرف الذب عن لغة القرآن.

وإني لأسأل الله تعالىٰ أن يسدد رميهم، ويثبت أفئدتهم، وأن يحشرني في زمرتهم، ويرد عن العربية كيد أعدائها.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

د. البشير عصام

الرباط، في التاسع والعشرين

من شهر شعبان سنة ١٤٣٦

ملحق

قائمة كتب للقراءة في اللغة والأدب

هذه قائمة كتب تعين قارئها على تحصيل الملكة اللغوية؛ سبق ذكر بعضها في الكتاب، وبعضُها مذكور هنا للتوسع والاستزادة.

وترتيب هذه الكتب في القائمة غير مقصود، فقد مضى في الكتب السابقة بيان الترتيب المقترح للتمكن من هذه العلوم المختلفة.

في النحو والصرف

* نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، لمحمد الطنطاوي.
* المدارس النحوية، لشوقي ضيف.
* النحو الواضح، لعلي الجارم ومصطفى أمين.
* شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، لجمال الدين ابن هشام، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.
* شرح قطر الندى وبلّ الصدى، لجمال الدين ابن هشام، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.

* شذا العرف في فن الصرف، لأحمد الحملاوي.
* التطبيق الصرفي، لعبده الراجحي.
* جامع الدروس العربية، لمصطفى الغلاييني.
* دليل السالك شرح ألفية ابن مالك، لعبد الله الفوزان.
* شرح العلامة ابن عقيل على ألفية ابن مالك، بتعليقات الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد.
* أوضح المسالك شرح ألفية ابن مالك لابن هشام، بتعليقات الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد.
* المغني في تصريف الأفعال، لمحمد عبد الخالق عضيمة.
* تصريف الأسماء والأفعال، لفخر الدين قباوة.
* مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام.
* النحو الوافي، لعباس حسن.
* التصريح على التوضيح، للشيخ خالد الأزهري.
* المقاصد الشافية، للإمام الشاطبي.
* شرح المفصل، لابن يعيش.
* شرح الرضي الاستراباذي على الشافية لابن الحاجب.
* شرح الرضي الاستراباذي على الكافية في النحو لابن الحاجب.
* الممتع في التصريف، لابن عصفور.
* المستقصى في علم التصريف، لعبد اللطيف الخطيب.

* الخصائص، لابن جني.
* الإنصاف في مسائل الخلاف، لأبي البركات الأنباري.
* الكتاب، لسيبويه.

في البلاغة

* البلاغة تطور وتاريخ، لشوقي ضيف.
* البلاغة الواضحة، لعلي الجارم وأحمد أمين.
* جواهر البلاغة، للسيد الهاشمي.
* المنهاج الواضح في البلاغة، لحامد عوني.
* مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، لمحمد محمد أبي موسى.
* دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني.
* أسرار البلاغة، لعبد القاهر الجرجاني.
* إعجاز القرآن، للباقلاني.
* ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري.
* الوساطة بين المتنبي وخصومه، للقاضي الجرجاني.
* الموازنة بين أبي تمام والبحتري، للآمدي.
* المثل السائر، لابن الأثير.
* العمدة في صناعة الشعر ونقده، لابن رشيق القيرواني.
* معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، لأحمد مطلوب.

* البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

* التصوير البياني، وخصائص التركيب، كلاهما لمحمد محمد أبي موسى.

في العروض والإملاء

* ميزان الذهب في صناعة شعر العرب، للسيد الهاشمي.

* شرح كتاب أهدى سبيل إلى علمي الخليل، لمحمود مصطفى.

* شفاء الغليل في علم الخليل، لمحمد بن علي المحلي.

* العيون الغامزة، للدماميني.

* الوافي في العروض والقوافي، للخطيب التبريزي.

* الإرشاد الشافي شرح متن الكافي في علمي العروض والقوافي، للدمنهوري.

* المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، عبد الله الطيب.

* كن شاعرا عمر خلوف.

* المطالع النصرية، لنصر الهوريني.

في اللغة وفقهها

* دراسات في فقه اللغة، لصبحي الصالح.

* علم اللغة وفقه اللغة، كلاهما لعلي عبد الواحد وافي
* فصول في فقه العربية والمدخل إلى علم اللغة، كلاهما لرمضان عبد التواب.
* المزهر في علوم اللغة وأنواعها، للسيوطي.
* فقه اللغة وسر العربية، للثعالبي.
* الصاحبي في فقه اللغة، لابن فارس.
* الاشتقاق، لعبد الله أمين.
* العلم الخفاق من علم الاشتقاق، لصديق حسن خان.
* معجم الأخطاء الشائعة، لمحمد العدناني.
* قل ولا تقل، لمصطفى جواد.
* تقويم اللسانين، لتقي الدين الهلالي.
* الألفاظ الكتابية، للهمداني.
* كفاية المتحفظ، لابن الأجدابي.
* نجعة الرائد، لليازجي.
* المعجم العربي - نشأته وتطوره، للدكتور حسين نصار.
* المصباح المنير للفيومي.
* القاموس المحيط، للفيروزابادي.

في العلوم الشرعية والتاريخية

* التحرير والتنوير، لابن عاشور.

* دراسات لأسلوب القرآن الكريم، لمحمد عبد الخالق عضيمة.

* مختصر صحيح البخاري، للزبيدي.

* مختصر صحيح مسلم، للمنذري.

* سيرة ابن إسحق بتهذيب ابن هشام.

* البداية والنهاية، لابن كثير.

* سير أعلام النبلاء، للذهبي.

* أيام العرب في الإسلام، جمع: محمد أبو الفضل إبراهيم ومحمد البجاوي.

* مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج الأصبهاني.

* وقعة صفين، لنصر بن مزاحم.

في الأدب

* المنتخب من أدب العرب، لأحمد الإسكندري وأحمد أمين وعلي الجارم وعبد العزيز البشري وأحمد ضيف.

* الوسيط في الأدب العربي وتاريخه، لأحمد الإسكندري ومصطفى العناني.

* جمهرة خطب العرب وجمهرة رسائل العرب كلاهما لأحمد زكي صفوت.

* كليلة ودمنة، لابن المقفع.

* البيان والتبيين، والحيوان، ومجموع الرسائل، كلها للجاحظ.
* الإمتاع والمؤانسة، والبصائر والذخائر، وأخلاق الوزيرين، كلها للتوحيدي.
* أدب الكاتب، والشعر والشعراء، كلاهما لابن قتيبة.
* الكامل، للمبرّد.
* الأمالي لأبي علي القالي، مع سمط اللآلي.
* الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني.
* العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي.
* شرح ديوان المتنبي، للبرقوقي.
* عبث الوليد، ومعجز أحمد، وذكرى حبيب، وسقط الزند، كلها لأبي العلاء المعري.
* دواوين البحتري وأبي تمام وابن الرومي.
* تاريخ الأدب العربي، لأحمد حسن الزيات.
* المفصل في تاريخ الأدب العربي، لأحمد الإسكندري ومصطفى أمين.
* سلسلة الدكتور شوقي ضيف في تاريخ الأدب العربي.
* شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، للمرزوقي.
* شرح مقامات الحريري، للشريشي.

* مقامات بديع الزمان الهمذاني.
* شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد.
* نفح الطيب، للمقّري.
* صبح الأعشى في صناعة الإنشا، للقلقشندي.
* نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري.
* زهر الآداب، للحُصري.
* مجمع الأمثال، للميداني.
* معجم الأدباء، لياقوت الحموي.
* إنباه الرواة على أنباه النحاة، للقفطي.
* الأعمال الكاملة للمنفلوطي.
* فيض الخاطر، لأحمد أمين.
* وحي الرسالة، لأحمد حسن الزيات.
* وحي القلم، وتحت راية القرآن، وتاريخ آداب العرب، كلها للرافعي.
* مؤلفات الشيخ أبي فهر محمود شاكر كاملة.
* مؤلفات الشيخ علي الطنطاوي كاملة.
* آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي.